عمرو العادلي

رحلة العائلة غير المقدسة

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إلى من تحمَّلتْ سخافاتي وجنوني

دون أي مُقابل

زينب

حين أتحدَّثُ في الحاضر يُغنِّي الصدى في الماضي.

مالك حداد

1

تبدو حزمة بيوتنا من بعيد كذيل كلب، معوجّة وتمشي مع شط الرشّاح أينما ذهب، أراها من أول الشارع كفم ثُعبان خرافي يتثاءب.

البيوت كُلُّها من دور واحد، متلاصقة، بعضها مبني كله، وبعضها نصفه، وبعضها مُهدَّم كما لو تعرض لقصفٍ مدفعي، مونة البناءِ خليط من طينٍ سوَّدته حرائقُ القمامة، ممزوج برمل خشن وروث، ملوحة المطر أكلت حواف بعض القوالب وحطَّمت البعض الآخر، زوايا متآكلة وشقوق متسخة، لم تمسسها منذ رصِّها يد، المونة بين الصفوف بارزةٌ، ثابتة على الوضع الذي كانت عليه وقت البناء. وعباراتٌ بطوبٍ حراري مميَّز، تُعبِّر عن هتافاتٍ صامتة لأصحاب البيوت المجازية..

«الله أكبر.. بسم الله الرحمن الرحيم.. محمد».

تمسكني أمِّي في يدها، أدوس على الأرض بخفَّة، أقفز كعصفور يعلم يقينًا أنه مخلوق للطيران وأن الأرض ليست مكانه. أعرف أن اسم أمي عائشة، ولا أتخيلها إلّا «عيشه» كما ينطقها الناس وينادي عليها أبي.

في الطريق للبيوت مواسير صرف كثيرة مطليّة بالقار، لم يحن دور استخدامها بديلًا عن المصرف المكشوف، ملقاة بإهمال على جانبي

الطريـق الضيِّـق، كبيـرة ونائمة في سـكون، يكفـي ارتفاع الواحـدة منها وقـوف إنسـانٍ بالـغ، المواسـير عامرة بـكل أنـواع الخضـروات الذابلة والفواكـه المعطوبة التي أوشـكت علـى الهلاك، يلقي السـرِّيحة الصغار بمخلَّفاتهم، بضاعة لا تسـاوي البيات فـوق عرباتهم، يتخلَّصون منها في ذيل نهار شاق، بعد أن يستبد بهم التعب وتُجهد حناجرهم من النداء على بضاعتهم.

يفـكُّ صاحـب العربـة الصغيـرة «العريش» عـن حمار منهـك، يرفع صندوقًا خشـبيًّا يزيـد قليلًا على حجـم كنبة، يفرغ محتوياتـه من بضاعة تالفـة في فوَّهة الماسـورة، يمـر فـارزو المخلَّفات، يدخلون المواسـير، يجمعـون ورق كرتـون مبتلًا بطبيـخ حامض أو يلملمون علب سـالمون فارغـة وبسـتلّات واقـع قعرهـا أو مبقـور صوانهـا. يعبثـون فـي أجولـة زجاجـات الزيت الفارغة وعبـوَّات الصابون والشـامبو، يجمعون كل ما فُدغ أو كُسـر من مسـتلزمات، يمكن إعـادة تدويرها لنفس الشـيء الذي كانته قبل الفناءِ الأول. وما يفيض بعد ذلك يكون من نصيب سـيارة زبالة كبيرة، تنفجر رائحتها ويسـتحيل تجنُّب شـمِّها، تخـرج من أجوائها عطنًا ومن أجنابها دودًا، بكسـل وبلادة، يتجوَّل حولها عُمَّال بملابس متَّسـخة كانـت في الأصل خضـراء، رائحتهم مقدودة من رائحة ما يتبقَّى يوميًّا في أحشاء المواسير.

تلمح أمِّي عربة صغيرة تحطُّ حمولتها في فوهة إحدى المواسير، تنتظر قليـلًا وتتابع الأجواء من بعيد، تتصنَّع عدم النظر للسـرِّيح الذي يتخلَّص من مخلَّفاته بلهوجة، تتظاهر بمساعدتي في ربط حذائي. ولكنها تتابع ما علق بالصندوق الخشـبي، يركل السرِّيح بضاعته الذابلة بعصبيَّة، يقمّص الحمـار فتميـل المخلفات علـى ملابس الرجـل، ينفض جلبابـه بضيق، يسـب للعيشـة ويلعن الحمـار الواقـف بعيدًا عـن العربة يعـب بمنخريه التـراب. يلبس بالطو رماديًّا خشـنًا ابتلَّ وضاعف المطر وزنه، قُبَّة رأسـه تسـيَّجها خِرقة قـذرة لا لون محدد لها، ملفوفـة أي كلام على إطار تظهر مـن مركزه صلعة. ينتهـي الرجل من مهمته، يُعلِّـق «العريش» على جنبي الحمار، يركب على حافة صندوقه فيُهمِّد الثقل عزم الحمار وتخور قواه، خبطة واحدة من خشـبة غليظة على ظهره، يعودُ بعدها لصوابه وتنتصب قوائمه، يرمح بصاحبه ويختفيان في زحام الناس وغبش الغروب.

تقترب أمي من فوهة الماسورة، تتأمَّل المحتويات. خيار نصف فاسد وحزم سـبانخ لم تـزل كعوبها وأنصاف عيدانها صالحـة للطهي، وبعض أصابع موز سوداء مرخيَّة. تنظر يمينا وشمالا، تتابع الناس من حولها قبل أن تعبـئ محصولهـا اليومي ممـا فاض عن حاجة الآخريـن، كانت تفعل ذلك يوميًّا حتى صار أشـبه بحرفة، تبحث في مخلفات تأنف الحيوانات شمَّها. تتحسس رؤوس أصابعها أولًا مدى الصلاحية، تتفحَّص البضاعة بيـد خبيـر، تغوص أصابعهـا لتنتقي مـا يصلـح لأغراضها، أو مـا يصلح نصفه، تربض في قبوها قرابة السـاعة وهي جالسة على قرافيصها، تُخرج من سيالة جلبابها الأسود شنطة بنفس اللون، تفتحها وتبدأ عملية التعبئة، تمتلئ الشنطة ويتعذَّر عليها حملها، تقاوم حتى ترفعها فوق رأسها. تلمح

بعـض تفاحات يمكن ضمُّها للحصيلـة وهي لاتزال في القبو، تفرد جزءًا من طرحتها السـوداء قبل أن تقوم من مكانها، بيد واحدة تضع التفاحات على نسـيجها الخفيف، وبالأخرى تمسـك الشنطة الكبيرة. تنشغل يداها الاثنتـان بالأحمـال، لـم أجد لـي دليلًا إلا طـرف جلبابها فأقبـض عليه، أتشبث بذيلها ونمشي تحت المطر لمسافة طويلة.

قطـرات المطـر تفرِّقهـا الرياح، تسـقط في مجرى المصـرف، وعلى الشـاطيء، يُعجـن الشـارع الضيق، السـحاب من فوقنـا محتقن وخيوط المطر تلمع ثم تتكسَّـر فوق البنايـات، البيوت مبنيَّة من دور واحد، يدقُّها البرق، يتقافز فوقها بخيوط طباشير متعرِّجة ومشعَّة.

أثناء سيرنا تلمح أمِّي عن بُعد ورقة ملفوفة أمام ماسورة أخرى، تقترب منها، تجسّها ببوز جزمتها البلاستيك، يغوص المجس في اللفافة كأن بها عجينًـا خمران، انهمار المطر ينقر الورقة، تدحرجها أمِّي بفضول مسـافة لفتيـن، لم تنفتح الورقة التي تقمِّطها، بدافع الاستكشـاف تُنزل حمولتها، تتفحَّـص اللفَّة المبرومة، تخرق عظمـة مدببة الورقة المكوَّرة، تدقق أمي فيهـا أكثـر، يظهر المكنون من اللفافـة الطرية التي بوَّشـها المطر، حوالي كيلـو لحم ملفوف في ورقة بُنيَّة سـميكة. وقفتْ وفي رأسـها تدور أفكار وهواجس، من الذي رماه؟ لابد فاسد.. أو سقط من شنطة مقطوعة. عند امتـداد الطريـق للبيوت يقع سـوق الخميـس الكبير، بعده بقليل مسـجد الحريَّة الذي يُفرِّقون فيه الذبائح على الفقراء والمحتاجين، لابد أفلت من شخص سيئ الحظ. وهل يرمي أحد لحومًا في مثل هذه الأيام الضنك؟

رفعتْ أمِّي اللقية ودسَّت فيها أنفها، تفحَّصتها، دققت النظر وأرهفت الشـم لكي لا تسـممنا، بلاها أكلة، كانت الرائحة عادية، اللحم في حالة ممتـازة، رائحـة ذبيحة لم يبرد دمهـا بعد، اتخذتْ قرارها سـريعًا وهمَّتْ بلفِّها ثانيةً وإضافتها إلى أعباء المشوار.

عوَّدهـا الفقـرُ الدائـم اتخاذ القـرارات بسـرعة، فالاختيـارات قليلة، لا يوجد ترف المفاضلة والتعزز.

2

الطريـق إلـى البيوت على ضفّة الرشـاح لم يكن طويـلًا، ولكن هناك مـا يجعلـه يطول، فالشـارع لا يعرف الأسـفلت، فقط طريـق ضيِّق دكَّت الأقـدام نصفه، ودقَّتـه قوائم الـدواب، والنصف الآخـر محجوز لأكوام قمامة تناطح أعلى البيوت طولًا، وتتخطاها أحيانًا. تبدو البنايات القصيرة كمساكن للأقزام، تخنقها جبال سوداء وتبرك عليها من كل اتجاه، تحترق ذاتيًا طوال الوقت، تتجمَّع فيها حلقات أدخنة دائمة، وتنمو بين أحشـائها خنافس وأبراص وحشـرات هجين بين أنـواع المخلوقات. والجمادات كذلـك، تتكاثـر وتنتـج جمادات جديـدة مختلفة عـن الطـور الأوّل. أما الرصيـف فهـو مجـازي، طابور شـبه منتظم مـن أحجار بعضهـا مفدوغ وبعضها مُهشَّـم، تقطع الطريق الواصل للمجرى المائي الثقيل، مرشـوق بينها عمود نور يتيم لا يضيء.

يهـون الطريق عندمـا تصل أمي إلـى دكان «أبو سـوريا» بائع الدقيق، رجـل أحمـر الوجـه منتفـخ الأشـداق، يربـط بطنـه دائمًا بشـريط أبيض لامـع، ينفخ كرشـه وهو يتابـع المطر من فوق كرسـيه المعصوب بدوبار الأجولـة. بجواره دكان الأطرش، دكان بقالـة وحيد وفقير، يُعلِّق صاحبه أكياس مسحوق الغسيل فوق حبل على باب دكانه، كمتمردين من العصر

المملوكي. ملاصق له دكان خيَّاط، دائمًا يحاول قطع فتلة بأسنانه، يدقق في المارة طويلًا كما يدقق في غُرز الثياب.

إضاءات قليلة تطل من النوافذ، شاحبة كأنها تستعد للنوم، وأمام البيوت كلوبات ترتعش، تلفظ أنفاسها الأخيرة.

حدود الشاطئين لم تكن واضحة؛ إذ يزيد عرض المجرى المائي أو يقل حسب قدرة المياه شديدة الملوحة على الفتك باليابسة وإخضاعها للذوبان في الماء الأخضر. أمَّا بيوتنا، فلم تكن بيوتًا بالمعنى المعروف، كانت بنايات يقولون عنها مجازًا «بيوت سويسي»، حزمة مساكن متلاصقة، من دور واحد تقارب العشرين، تمتد في طابور معوج على شط المصرف، بينها وبين الرائحة النفَّاذة أقل من مترين، بعضها لها أبواب طويلة بشكل مبالغ فيه ولا تتطابق مع الحلوق، وبعضها بأبواب فلكلورية لا تستند إلى أي مقاييس، قطعة خشب من هنا على قطعة صفيح من هناك، وبعض البيوت تكتفي بستائر ثقيلة ومتسخة دائمًا. تتفاوت مساحات البيوت طولًا وعرضًا، وتتفاوت أيضًا مستويات القاطنين فيها، فمنهم كمساريَّة في هيئة النقل العام أو موظفون في مرفق الصرف الصحي، وأغلبهم حرفيون من طائفة المعمار.

تعرف أمي أنها اقتربت من البيت عندما تشم رائحة حرق القمامة، أدخنة تزكم أنفي وتضبب رؤيتي، تستقر بقايا الروائح في قاع مخي فتدمع عيني أثناء النوم، أما عن المصدر فهما اثنان، أكوام القمامة الملقاة برغبة الناس حول البيوت كأنها تغلِّفها، والمصدر الثاني هو مستوقد للفول،

سياج بطوب من الطين على مساحة قيراطين، مُسقَّف بمواسير وزوايا حديد بها فتحات لتمرير الدخان والصهد.

بالقرب من بيتنا، تتجوَّل عربات كارو صغيرة، الواحدة منها في حجم كنبة ومعلَّق فيها جحش، يرمح بها سائقوها الأطفال في اتجاه سوق الخضروات، يحملون بقايا بصل وبنجر وعروش كرنب وخس، يُلقون بالحمولة أمام أغنام تتجوَّل حول البيوت السويسي، يلتهم القطيع محتويات العربات فيزيد وزنها، وسعرها.

احْمَرَّ وجه أمي من المجهود والبرد، الأحمال قاسية مقارنة بطول المشوار، وصلتْ إلى مصطبة بيتنا بعد أن تغلَّبت قدماها على زلقة الطين طوال المسافة. رفست الباب المتداعي ببوز جزمتها البلاستيك رفسة خفيفة فاستجاب للطلب سريعًا، الباب له إطار من خشب، وقلبه معمول من أبلكاش مختلف السُّمك والألوان، مرقَّع بمسامير ومُطعَّم بقطع زخارف دخيلة لا مكان مقنع لها، مدقوق فيه صفيح مفرود من علب سمن كبيرة وصدئة، مفصلاته معوجَّة ومائلة على جنبها كلسان ذبيحة، كلما انفتح الباب حك كعبه في الأرض، وشبك حلقه في طرحتها. دائمًا تقع طاقية أبي وهو داخل، التعوُّد جعله يمسكها كلما عبر الباب القصير، حتى ولو سينحني، فأبي طويل والباب عمولة، هو الذي صنعه في ليلة صيف، أو بالأدق جمَّعه، أخذ مقاس طوله بالتمام ونسي أن يضيف إليه مقاس الطاقيَّة.

في مواجهة الباب مباشرة، صورة متوسطة الحجم لأبي بالزي العسكري، بجوارها صورة كبيرة لفلاح يصافح الرئيس جمال عبد الناصر بيد، وبالأخرى يحمل ورقة ملفوفة، ثم صورتان ملطوعتان على الحيطة لجدِّي وجدتي، بروازين صغيرين، واحد لعجوز بوجه محتقن كأنه يعاني من إمساك، والثاني لرأس مستدير ومحجَّب، مُعلَّق فوق زاويته مسبحة قديمة، تظلل شراشيبها فوق الملامح الباهتة.

وقعت عيناها بعد البراويز المعلقة على كرسي متحرك متآكل، توقَّفتْ بأحمالها أمام قطعة اللحم المتكوِّمة فوقه بلا حول ولا حيل.. أخي الأوسط، أنس.

كان له من اسمه نصيب، فهو نصف إنسان، رأسه يحيا على أنقاض جسد افتراضي لا ينمو، الجزء الحي فيه يفعل الشيء وعكسه في وقت واحد، يبتسم ويكشِّر، يحزن ويفرح، أربعة عشر عاما وهو يحيا داخل جسد عليل توقف نموه عند عامين، والرأس ماضٍ في النمو وحده، استأثر بالروح وطمع فيها، حرم منها الجسد الضامر الصغير، جذع في حجم سمَّانة وذراعان تشبهان ملعقتين، ورؤوس أصابع صغيرة لا تزيد أطولها على عُقلة، تحفر في الهواء بشكل دائم، كأنها تنقب عن شيء غير مرئي أو تقلد قنديل بحر، رأسه يتحرك بلا ضابط أو مركز، وأصابعه تهبش كل ما تطوله، أما ما تبقى منه فهو ساكن ومستقر.

يجلس أنس طوال الوقت على كرسيه المتحرِّك الذي لا يتحرَّك، لا يربطه بالكراسي المتحرِّكة إلا الاسم، إطاراته صدئة ومغروسة في

الأرض اللزجة، عجلتاه مخلخلتان وجلده كالح ومقشور، مسنده معوَّج والأسفنج يطل من بين طعنات طولية في الجلد، كل بضعة أيَّام يفقد من حشيته جزءًا، سنَّادة القدمين مربوطة بسلك تسليح، هو لن يحتاجها على أيَّة حال، فلا أقدام له تقريبًا، فقط جذع صغير مبروم في لفَّة بفتة يتم تغييرها مع مواعيد الطعام القليل، تعتني أمي بمظهره ونظافته، تتوقَّف كثيرا أمام براءته التي لا مثيل لها، فالوجه لصبي على مشارف الرجولة، وكل ما ينتمي له بعد ذلك كأنه يخص رضيعًا في أيامه الأولى، جسد ثابت أغلب الوقت، كأنه كمالة للعجلتين المخلخلتين. اشترت أمي الكرسي من سوق الخميس كما تشتري كل شيء في أخر النهار، لابد أخر النهار، فدائمًا بضاعة عُقب السوق رخيصة.

تغسل أمي وجه أنس كل صباح بماء دافئ كدمعة العين ثم تغيِّر له لفَّته البفتة، وتطمئن بين الحين والآخر على أعضائه التحتانية، تنظفها من القذارة لتقيه انتهاك الحشرات، تتأكد من سلامته ثم تعيد برمه من جديد، تحبك حوله القماشة لكي لا يخترقه برص مباغت من بين أعواد الغاب، أو يتسلل إليه ثعبان من بين شقوق التعريشة.

تضع أنس بعد ذلك على كرسيه، تلاعبه حتى يبتسم، فهو لا يتكلم، لا يسمع، يحتفي بلغته وكائناته في عالمه البعيد، أصوات مناغاة لا معنى لها إلا عند ملاكه الكبير، أمي، فميل رأسه على جانب واحد معناه أنه يريد حك جزء من جلده في نفس الاتجاه، وفتحه لفمه مرات متتالية بأصوات من يرتاح من إجهاد معناه حلول موعد الطعام، وزفيره المتقطع ضيق من

حرارة الجو، أما لو صرخ صرخة مبحوحة فترفعه أمي وتحضنه، تُقبّله وتضعه مكانه مرة أخرى. قاموس طويل من التعاملات المتفق عليها بينهما، قاموس عماده الإحساس، لا حفظ الكلمات واستدعاؤها. رضيتُ بالقضاء وتعاملتُ مع المسألة بصبر وسلام.

أسراب الذباب ترتع في محيط أنس على شكل حلقات، تهشُّها أمي بيدها العفيَّة، تجذب فوق وجهه طرحة خفيفة تتدلّى أطرافها دائمًا فوق مسند الكرسي.

تدخل إلى عمق البيت، تُقبِل عليها الدجاجات والكتاكيت، تستقبلها فيما يشبه الزفَّة، تلف حولها دائرة وتناجيها بأعين بريئة وحركات متشنِّجة، تحط حمولتها وتجلس لتستريح فوق حجر كبير ومربع له استخدامات عديدة، فهو محطة للراحة داخل البيت، ويستخدم لتكسير الدوم ونوى المشمش وسحق مخلوط الفلافل وسَن السكاكين، وأحيانًا تقف عليه لتبطيط نسيج العناكب أو مطاردة صرصار شارد بشبشب حمام.

3

تبدأ أمي في تفريغ شنطتها السوداء من محتوياتها، تنشغل قليلًا مع لفافة اللحم التي لم تزل تشك في صلاحيتها، تشعل الوابور، تسخِّن قليلًا من الماء في كنكة بلا يد، تقطع من اللحم سلخة صغيرة لا تزيد على مقدار قضمة، تلقيها في الكنكة وتنتظر الوصول لدرجة الغليان، تتحوَّل المياه في الكنكة لشوربة، تمد ملعقة وتسحب قطعة اللحم تنفخ فيها حتى تحتمل تذوّقها:

«هيَّ يعني موتة ولاّ أكتر؟».

تقول لنفسها ثم تدفع بقطعة اللحم إلى فمها، تقلِّبها على جانبي الطحن، تقول:

«والنبي طعمها حلو».

تنتهي من مضغها وبلعها، تنتظر أن يحدث شيء، يدور رأسها قليلا، المشوار مجهد والبرد الشديد يُشجِّع على النوم، تتثاءب ملء فيها، تستعيذ بالله من الشيطان وتكمل ما بدأته، تضع اللحم كله على النار بعد أن تغسله جيدًا، لا خوف منه ما دامت جرَّبته وربنا عدَّاها على خير، تبدأ بفرز وتنظيف محتويات الشنطة السوداء استعدادًا لمجيء أبي من قصر العيني وأخي فتحي من المدرسة.

قبل أن تستكمل أمي راحتها من المشوار الشاق، اكتشفت ما جعلها فزَّت واقفة، الديك.. أين الديك الشركسي؟ تمشَّط البيت الصغير، تتخطَّى سوره القصير المطل على المصرف مباشرة، تصل إلى أعواد الغاب التي تفصل بين البيوت المتواضعة ومجرى الرشاح، المياه الهادرة تسبح فيها قاذورات وحيوانات نافقة منتفخة الأبدان منفرجة الأرجل، ينهشها ذباب أخضر، تقرقع الجثث وتحك في الغاب القوي، تحفُّ في نبت شيطاني قرطاسي الساق كأغماد السيوف.

تقف أمي حائرة، ربما اختبأ الديك في مِحمِة الفرن؟ كانت ستشويه حيًّا بغير عمد منذ أيام، وجدته مختبئا من الصقيع والمطر، مدت عصا ملقاة بجوارها، بحثتْ عنه بحرص لكي لا تخدشه فلم تجده، جثت على ركبتيها ونظرت للتأكد. نطَّ الديك من بين أعواد الغاب، قفز وفي فمه عشبة صغيرة، هشَّته أمي بيدها لينضم إلى سربه.

ملأت كفها حبًّا من علبة صفيح وفرقته على الدجاجات بالتساوي، نظرت يدها على شكل مروحة فقفزت الفراريج وزها الديك بعرفه الأحمر المنتصب وهو ينقي الحب بكبرياء. تجمَّعت حولها عصافير رمادية صغيرة، أكبر قليلًا من إبهام، حطت فوق رؤوس الغاب، ثم نزلت تشارك الفراريج والكتاكيت نقر الحب، حركات النقر متشنِّجة، ولكنها توحي بطمأنينة مريحة للطيور وسذاجة محببة لنفوس المربِّين.

على شاطيء الرشَّاح، يجلس جدِّي طلبة فوق قفص جريد، يمد حبل به ثُقَّالة، يُخرجها ويقيس عمق المصرف، يلمح أمِّي فيترك ما في يده ويدخل.

4

أثناء التحضير للأكلة المعتبرة، أسرح في ملامح أمي، أتخيل نفسي أغطس في بئر ذكرياتها. لكنني لا أستمر فيه طويلًا، فدفاتره مليئة بالكروب، والسواد يجور فيه على كل الألوان، حكاياتها التي خصَّتني بها كانت تشكل ما أسميه الآن ذكريات، ساعدت على تكويني أكثر من الأحداث نفسها، كانت دائمًا تقول لنا:

«عنيَّه ابيضِّتْ على ما شُفتكم»

رضاها بأنس نعمة من ربنا، فغيرها لا تطول ظُفره، وهي نفسها داخت عند الأطباء شوطًا وعند المشايخ أشواط، زهق أبي وسب للعيال واللي عاوزين الخلفة. خمس سنوات وِشُّهم في وش بعض، ملأت سوائله عشرات من أنابيب الاختبار، زهقت أمي من كشوف الأطباء، وداخت عند العارفات بأمور الخلفة ودهاليزها، كل العيال سقوط، عند الشهر الخامس لا يكتمل لهم نمو. ولادة الداية قاسية ويموت الولد، ويطوِّح أبي الأدوية التي اشتراها لتثبيت الحمل فوق أسطح البيوت بعد أن يصله الخبر، وولادة المستشفى أريح، أكثر تكلفة وأقل مشقَّة، ولكن الولد يموت أيضًا، ويقذف أبي بالأدوية فوق سطح المستشفى بنفس الطريقة.

العيال تموت واحدا بعد الآخر، ولكنّها فُرِجت، جاءها المخاض في فتحي، وأكمل عامًا، هو أول عيالها الذي يدور عليه الحول.

أتمَّ فتحي أخي ثلاث سنوات، وقبل أن يجف لبن الرضاعة من على شفتيه جاء أنس، وكان سببًا جديدًا في معرفة أبي بأغلب المستشفيات، أصابه فيروس غريب جعله على هذه الحال، مِن أجل أنس صنع أبي رفًّا خاصًّا لرص أدوية لم تساعده على النمو، ولم تُغيِّر خِلقته التي وُلِدَ بها.

بعد ولادة أنس بعام واحد، أنجبتْ أمي طفلًا له رأس كبير وجذع صغير، لكنه بلا أطراف ولا فتحة شرج، مات قبل أن يتم أسبوعين قضاهما أبي مرَّة أخرى بين طرقات المستشفيات، اقترحتْ أمي على أبي أن يخلع اسم أخي الميت عليَّ عندما وُلِدتُ، لا أعرف هل من قِلَّة الأسماء أم خوفًا من الحسد؟

عندما كنت أسبح كسائل لم يتم استخلاصه بعد من جينات الغيب ومزاج اللحظة، اكتفى أبي بفتحي واستعوض الله في أنس، حذَّر أمي كثيرًا بأن طلاقها مرهون بحملها للمرة الرابعة، لم يتخيَّل نفسه مخلِّفًا عيالًا معوقين، فتصبح وظيفته هي فقط إطعامهم وكسوتهم، وتصبح مهمتهم الوحيدة أن ينحلوا وبره في مصاريف العلاج واللف بين أقسام المستشفيات، أو التوسّل للأطباء في قصر العيني. كان يهرب من المسئوليَّة عن شخصٍ آخر يشبه أنس أو أخي الرضيع الذي مات وحملتُ اسمه، عطبت بذرتين ويمكن للسلَّة كلها أن تخيب.

أحاول تذكُّر أول خيط شكَّل المراحل الأولى لإدراكي، كنت كمن يبحث عن دبُّوس في بِركة، متى بدأتْ حكايتي، كيف تعرَّفتُ على من حولي؟ أفشل في إيجاد بداية مقنعة لمرحلة تشكُّلي الفعلي، بعد تفكير طويل أعثر على أول الخيط في حكايات أمي، أسمعها أولًا، ثم أُضفي على ما تقول مسحتي الخياليَّة المعتادة.

تُعدِّل أمي من وضعها، ترتب ما ستقوله لأبي بتنسيق يناسب خيالها، ووسائل تنظيم الأسرة لا تزال في حيز التجريب، لم تكن أجهزة الإعلام قد نجحت بعد في إقناع الناس بمدى جدواها. كان الشريط يؤلم أحشاءها، وضعته بعد ولادة أخي الذي حملتُ اسمه فيما بعد، لم يكن الألم هو السبب الوحيد لخلعه، ولكنها ضاقت بأن يكون لها ابنان فقط، واحد منهم لا يدخل في حسابات أبي، فهو لا يعترف بوجود أنس من الأساس.

فكّرتْ أمِّي في طريقة تستدعيني بها من غياهب الظلمات إلى قبضة الداية. فنفَّذتِ الحيلة بلا تردد.

تخلع الشريط أولًا دون علم أبي، يمر شهر بعد شهر، تخفي عنه أن العوائق أزيلت من طريق رحِمها، وأنّه يمكنه الآن استقبال بذرة بني آدم جديد. تخط الكحل وتقرص خدودها، تقرر مصارحته، يبدأ الهاجس في العمل تلقائيًا، حتى قبل أن تفتح فمها بكلمة. تُجري بروفة أولًا بينها وبين نفسها، تقف أمام مرآة التسريحة المكسورة، تكوِّر بطنها قليلًا وارتفع بمقدار طبق، تحسست جيدًا جلدها، الذي بدأ يمط قبل أن تؤلف

الكلمات التى ستلقيها على مسامع أبي بعد قليل، تتخيَّل تكشيرته عندما يسمع كلمة «أنا حِبلَى»، ترفع أشياء مُكوَّمة من على التسريحة لتتخيَّل تَشَكُّلي في استدارة بطنها، تُردد بينها وبين نفسها الكلمات التي دبَّرتها، تحدد الطريقة التي ستلقيها بها، تملِّس على بطنها في طوره الجديد، تتخيَّل أبي بملامحه القاسية «حينزل يعني حينزل»، تستخدم أقوى أسلحتها منذ البداية، تبكي.

يدخل أبي عليها، تنزل الدموع في فمها فلا تمنعها، يجلس بجوارها:

«مش عارفة أقول لك إيه يا خويا والنبي».

تعاود البكاء بصوت منغم وتضيف بحس ناعم:

«مش عارفة بقى دي نعمة ولا نقمة؟».

يقترب منها، كان على وشك أن يلقم الطعم، وإمعانًا في حبك الدور الصعب تتابعه بنظرات ناعمة، يضمُّها أبي، يربت على كتفها، يتأمل كحلها ويتشمم عطرها، يتعجَّلها أن تحكي له ما يضايقها ويحزنها.

«كنت واخدة بالي أوي وعاملة حسابي يا خويا. لكن حصل».

يردُّ أبي بنبرة من يتوقع ما سيسمع، تنزلق يده عن كتفها، يسألها بملامح تتحوَّل تدريجيًا للشكل الذي تخشاه أمي وتعمل حسابه:

«هوَّ إيه اللي حصل يا عيشه».

بإصبع واحدة تمسح دمعة منفلتة، تعاود الحركة برقَّة، تُعدِّل جلستها وتنظر في عينيه مباشرة، تقول:

«الشريط اتزحزح. أمر ربنا بقى. والنبي ما تزعَّل نفسك ياخويا».

تحتاج أحيانًا الكلمات الحاسمة لإعادة الترتيب من جديد ليتم استيعابها جيدًا، يتجهَّم أبي للحظات، تتابع أمي تغيُّرات ملامحه بتحفز، تشعر بكل هفوة تَحَوُّل، لكنه سرعان ما يُبدِّل التجهم بابتسامة مكتومة تخشى أن تنطلق:

«وماله. أمر الله. ولا راد لقضائه. هوَّ العبد بإيده حاجة».

قال ذلك، فلم يعطها الفرصة لتكمل التمثيلية، لم تصدق أنها نجت بي واقتنصتني بإصرار غريب، لم تكمل أمي الحكاية، تبسَّمتْ وقالت:

«ضحك وسنانه بانت. أصلي مبشوفهاش غير كل فين وفين».

أضاف بين كلماته فى تلك الليلة البعيدة ما أسعدها وبحبح عليها:

«إوعي يا عيشه تشيلي حاجة تقيلة. لغاية لمَّا ربنا يُجبُرك بالسلامة» .

لم تُصدِّق أمِّي أنّه ابتلع الطُّعم بهذه السهولة، قالت إنه يداري غضبه لأن نزول العيِّل سيغضب ربنا. تبددت ظنونها يوم سبوعي، ذهب أبي بفرحة ونشاط لعمي الميسور، استدان منه ثمن عشرة كيلو لحمة دفعة واحدة، جاءت خالاتي وعمَّاتي وأقارب آخرون ليحتفلوا بي، كانت ليلة أشبه بالمولد، أكل الناس وانبسطوا، وظل الاحتفال خالدًا في ذاكرتهم حتى وقت قريب.

تركتنـي أمي وأنا سـارح في حمولة الذكريات، قامـت بِهمَّة من تأخر على موعد، شطفتِ الفوَّالة، ملأت نصفها فولًا ونصفها ماء، كان الظلام قد بدأ ينسـحب تدريجيًّا على صفٍّ البيوت فأنارت اللمبة الجاز وعلَّقتْها فـي مسـمار كبير، ثـم لفَّتْ شـريطها المشـتعل فأصبح في ضوء شـمعة، ثبَّتـت الفوالة فوق اللمبة، بالكاد يحفها الصَّهد، تأكدت من تمكين اللمبة والفوَّالـة بما لا يعطي فرصـة ولو ضعيفة لوقوع إحداهما. كانت هذه هي طريقتها المحفوظة لتدميس الفول، تترك السـخونة الضعيفة لليلة كاملة، تأكل الفول وتُسـليه مع الماء، وفي الصباح تعصـر فوقه الليمون، وترش الملح أبو كمون، والشاطر من يلحق لحسة في قعر الطبق.

5

أصبح اسـمي على اسـم أخي الميت، تـزوره أمي في المقابـر أحيانًا وتأخذنـي معها، اسـمه بالكامل هو نفس اسـمي بالكامل وهناك شـهادة وفاة في أوراق أبي تثبت وفاة نفس الاسم رباعيًّا، كان شيئًا مرعبًا لي وأنا طفل.. يقابلني أحد أقربائي ويقول لأمي:

«ربنا يعوَّضِك ويطرح في العريس دا البركة بدل اللي راح».

يقترب منِّي ويملِّس على رأسـي. أشـعر بأنني بديـل عن أخي الميت الـذي لـم أره ولا توجـد له صورة، يشـتعل خيالي في تصـورات مختلفة لملامحه، أرسـم له صورة الشـخص الأصلي وأنا أنوب عنه، أعيش بدلًا منـه، أو أُتِـمّ حياته المفقودة بلا ذنـب اقترفته، كل ما هنالـك أنني وُلِدتُ وأبي وأمي متأثرين باسـم لـم أر صاحبه أبدًا. كرِهتُ اسـمي منذ البداية، ولم أعد أحب ذِكْرهُ.

كبـر فتحـي الآن وأصبح من السـهل على أمِّي أن تلمح زغب شـاربه الخفيـف. كانـت ترى في بياض بشـرته نعمة مـن ربنا وكأنـه ابن ذوات، يفطر مربى ويتغدى «لحم وفراخ» ويتعشـى «بيض وزبادي وبقسـماط»، لا تصـدق أمـي أن عوده الذي يسـلك طريـق الرجولة، وبشـرته البيضاء

نَمَتْ من خضروات ذابلة وفواكه تسرَّب إلى أنسجتها الحمض، ولحوم «مَلْقيّة» وشوربة عظم وهياكل فراخ، ومن فول مدمَّس تطهيه في الفوَّالة على اللمبة الجاز ليلة كاملة، أو لبن ممزوج بثلاثة أضعافه ماء، وأن فطوره غالبًا كان بيضًا انشرخت قشرته فأفلت من البيع، وتم فقشه في سمن أو خلطه بطماطم طريَّة من عُقب السوق، مع مخللات بيتى ومِشّ قديم وبصلة مدشوشة. لم تصدِّق أيضًا أن عقله الذي جاب في الإعدادية 88٪ تنبَّه من تفل شاي يشليه الماء المغلي فيصنع دورين محترمين وأحيانًا ثلاثة، وأثمان القهوة التي تشيلها له وتعملها بوشّ في أوقات الامتحان. كاد فتحى الأعادي وكان أول واحد يدخل ثانوى عام في تاريخ العائلة.

نجح فتحي في الإعداديَّة، ونظَّمتْ له مدرسته احتفالًا يليق بالمتفوقين، فرح لأن اسمه سيوضع في لوحة الشرف، وفرحتُ لأني سأذهب معه وأراه وهو يتسلَّم شهادة تقدير، ولكن المسألة كانت بالنسبة لأمي مأزقًا كبيرًا، فلابد أن نَقُصَّ شعرنا دون أن يكون العيد على الأبواب، أخذتنا أمي عند حلاَّق فقير المنظر، ودكَّانه كذلك أيضًا، كرسي خشب ومرآة مكسورة ومقص ومشط هي كل محتوياته، كان الحلاق عجوزًا أحْوَل يلبس جلبابًا متَّسِّخا وشبشب بلاستيك، أول ما رآنا نقترب من دكَّانه، أمسك بفوطة ونفض الكرسي ووقف بجواره.

«عايزة أحلق لهم يا عم».

قالت أمي، وابتسم الرجل ابتسامة عريضة أظهرتْ في فكه العلوي نابًا واحدًا:

«هتاخد كام؟».

رفع الرجل كفَّه أمامها وأخفى عنها إصبعين:

«تلاته جنيه على الاتنين».

تمسك أمي بكتف فتحي قبل أن يجلس على الكرسي، توجِّه كلامها للحلاق:

«هُمَّا اتنين جنيه حلوين. دا أبوهم بيقبض خمسة وتلاتين جنيه في الشهر يا عم».

يجلس فتحي على الكرسي وأنتظره أنا وأمي، بدأ الرجل الأحْول بِجَث قُصَّة أخي من منبتها، ثم ساوى بعدها رأسه كلها بنفس القِصر، كان يدقق في رأس فتحي طويلًا، ثم يخطف بالمقص جزءًا من شعره، نظرتُ إلى رأس أخي المنقور وعزمتُ على ألاَّ أحلق عند هذا الرجل أبدًا مهما كانت الخسائر.. لم يكتف الرجل بذلك، ولكنَّه لم يقص لفتحي سوالفه، تركها بلا تشذيب، كانت الموضة هي تقصير السوالف حتى أول الأذن. قالت أمي للعجوز:

«ظبَّطه يا عم. واعمل له قَصَّة العريس. أصله طالع التالت على المدرسة. وهياخد شهادة تقدير بكره»

يمسك الرجل بالمرآة المكسورة، ولا يرى فتحي شيئًا فيها. أعطاني الحلاق جنيهًا وأرسلني لأشتري له علبة سجائر، عدتُ فكان فتحي

يملّس على ما تبقى من شعره، وينفض ما علق في قفاه من مخلّفات الحلاقة، أعطيت للرجل السجائر وبقية الفلوس وجريت خارج الدكّان:

«يلا يا حبيبي علشان تحلق؟ شايف أخوك؟ حلق وبقى عسل»

تقول أمي، وأتأمل من خارج الدكان فتحي الذي يقف على بابه يتهرّش، شعره مدرّج وسوالفه طويلة، لا قُصّة له كأنه خارج من السجن، يزيد ذلك عزمي على ألاّ يمس مقص هذا الرجل رأسي، جرت أمي ورائي تشتم وتسب، ثم تتذكّر أنها لم تعط للحلاّق أجرته، تعود وتعطيه خمسة وسبعين قرشًا. أقف على الباب أنتظرها، ملامح الرجل تعترض على الأجر، لا أسمع من حوارهما إلاّ آخر جملة، قالتها أمي قبل أن تخرج من الدكّان:

«احمد ربنا. حلو أوي كده يا عم. دا انتَ بوّظتْ دماغ الواد».

تتفرّغ أمي لي، تمد خطوتها وأنا أمامها، يسير فتحي خلفها مهزومًا يتحسس رأسه، طالتني يد أمي في سهو من حساب المسافة بيني وبينها، هزّت كتفي بقوّة:

«يعني عاجبك شعرك دا؟ مش هاخدك معانا بكره المدرسة».

لا أرد، أنجح في الإفلات من قبضتها، أرى فتحي يقف أمام «فاترينة» لمحل ملابس، لا يتفرج على الملابس، ولكنه يتأمل شعره في الزجاج.

أثناء الذهاب للبيت، يراني «مطراوي» صاحبي، يشير لي من بعيد، وأحمد الله على هروبي من مقص الحلاّق الأحول.

تنفض يدها منّي، تذهب في اتجاه فتحي، تتأمّل رأسه:

«القَصّة حلوة».

لم يرد فتحي.

«بس قصرت شويّة».

لم يرد أيضًا.

«أنا قلت للحلاّق إن أبوك بياخد خمسة وتلاتين في الشهر. بس هوّ بياخد خمسة وأربعين. المعايش عايزة اللي يداري نفسه يا حبيبي».

أمشي خلفهما، أراوغ في الطريق حتّى لا تمسكني أمي. وفتحي لم يتكلّم حتى وصلنا إلى البيت.

في مساء نفس اليوم كانت الحيرة الثانية لأمّي، فمن أين لنا بملابس تليق بحدث مُهِم كهذا، دبّرتْ لفتحي طقمًا ملفقًا من الدولاب، كان بدلة صيفيّة بكم لا يطابق بنطلونها الجاكيت، اشترت له بيبيون ومنديلًا أحمر رشقته في الجيب العلوي، كانت هذه هي المرة الأولى التي نذهب فيها بملابس للمكوجي، فرق فتحي شعره من الجنب ولمّع جزمة سوداء وركّب لها فَرْش.

تتباهى أمّي بهذه المناسبة حتّى اليوم، تحتفظ بشهادة التقدير وصورة وحيدة لفتحي، صورها واحد صاحبه من المتفوقين، لم يكن فتحي هو المقصود بالتصوير.

عندما بلغ فتحي أخي عامه الخامس عشر، بدأتْ أمي تحدِّثه باستحياء عن وجوب العمل في إجازة الصيف، قدَّم أوراقه في مدرسته الثانويَّة ولكن يبقى شهران على بدء الدراسة. كان العمل في أي شيء يُضفي على الشخص مهابة، ويضيف إليه مكانة لم تكن موجودة من قبل. اشتغل فتحي في ورشة نجارة، كان يعود إلى البيت منهكًا، يأكل وينام، كنتُ أراه رجلًا يمكن أن يتزوج وينجب وهو في هذه السن، انتابتني رغبة كبيرة في الذهاب بصحبته إلى الورشة، ذهبت معه نصف نهار، قال لي إن اليوم بجنيه، لكني لم أتقاض جنيهًا؛ لأني لم أُكمل اليوم، في الورشة شتمني رجل بأمي، كان أسطى كئيب الملامح، رأسه أصلع وكِرشه مهيب وصوته جهوري متوتِّر، يضع عود كبريت بين أسنانه بشكل دائم ويشتم كل الصبيان. لم أدر بنفسي إلاَّ وأنا أسب أمه كما سب أمي، يضربني بخشبة كانت في يده، يجرى ورائي وأهرب منه، أصل للبيت وخدِّي وارم، تعرف أمي الحكاية، تغير لي ملابسي وتدهن وجهي بمرهم من أنبوبة قديمة خلف برواز صورة أبي بالزي العسكري، تضع يدها في عبِّها وتُخرج جنيهًا صحيحًا:

«خد. يوميتك اللي كنت هتقبضها. روح العب في الشارع. بلا شُغل بلا زفت».

ويعود أبي منهكًا من قصر العيني، يسأل أمي عن وجهي القابب. وترد بغير اكتراث:

«اتكعبل وهوَّ خارج. حصل خير».

ونتيجة لهذه الممارسات طرد صاحب الورشة أخي وعاد فتحي يبحث عن عمل من جديد.

أبحث مع فتحي عن شغل قريب من البيت، وأجد ضالتي في ورشة نجارة، كان صاحبها رجلًا متخصصًا في مناضد الحُبيبي الرخيصة، اشتغلتُ أنا وأخي عنده بأجر جنيهين في اليوم لكل منَّا، يقوم فتحي باستعدال المواسير وضبط استدارتها، وأقوم أنا بخلط البنزين بالكُلَّة وأسحبه على سطح الحبيبي الخشن، يلزق الأسطى «الفرومايكا» حتى تشتد الكُلَّة، ثم يطوقها فتحي بشريط ألومنيوم، ليحبس على الفرومايكا الرقيقة ويضغطها مع خشب الحبيبي الهش.

عندما ينتهي يوم العمل، كان كلٌّ منَّا يساهم بنصف جنيه، نشتري بالجنيه كيسًا محترمًا من الفاكهة، لا تصدق أمي عندما ندخل عليها بالفاكهة أن أولادها الأطفال يشترون لها موزًا وبطيخًا من الفكهاني رأسًا.

أكل أبي ما تيسَّر، ثم نام، علا صوت شخيره على جلبة الأكل.

فاتحتُ أمي ونحن نأكل في موضوع:

«الشغل أحسن من المدرسة».

لم ترد، فقط زغرت وهي تخرج البذر من شقَّة بطيخ في يدها.. فأكملتُ قائلًا:

«دا أبويا ذات نفسه مبيقبضش ستين جنيه في الشهر».

نفضت جلبابها من بذر طائش استقر في حجرها، ألقت بشقَّة البطيخ فـي الطبق بعنـف وتركتنا، غابت دقيقة ثم عـادت، رمت أمامي حذاء أبي المثقـوب وقميصـه الملبَّـد بالعرق، وقع كـمُّ القميص في طبـق البطيخ، قالت:

«هُمَّا دول اللي حتورثهم لو مكملتش تعليمك، أنت سامع»..

أخـذت تهـز ذراعـي حتى وقعـت قطعة البطيـخ من يدي، واسـتيقظ أبي.

6

أكملـتْ أمِّي تنظيف التفاح، بعد إقصـاء المعطوب تبقى حوالي كيلو يصلح للأكل، قطَّعت بعضه وجلسـت بجوار أنس، رفعت قطعة سـليمة وقرَّبتها من فمه:

«تفاح أهو يا سي أنس.. كُل واتمزَّج».

يد مجعَّدة تمتد إليها، تضع فيها أمِّي قطعة تفاح مغسولة، تنصرف اليد، يجلس صاحبها مرَّة أخرى فوق القفص الجريد على شاطيء الرشَّاح.

يبلغ الطعام فم أنس، يرفس بشدة، يمطِّع ذراعيه الصغيرتين ويضعهما عند آخر جذعه، ترتعش أصابعه كمصلٍّ فى تشهُّد التحيات. يقضم قطعة التفاح وهو ينظر لأمي، عيناه خضراوان، جميلتان، خسارة فى رأس لا يعرف كيف يأخذ بيد البدن. تُعلِّق أمي في رقبته شخشيخة مربوطة بدوبارة، اشترتها له مخصوصًا من السوق، هزتها هزات متتالية لينتبه إليها، يتأملها أنس ويحاول لمسها، رؤوس أصابعه تطولها بالكاد. تتابعه بعين راضية بقسمة ربنا. بجواره ربضت قطته، قطة أنس، هكذا تُسمِّيها أمي، قطة مرقطة كنمر صغير، لا تجلس مطمئنة إلا بجواره، تحمل إليه أحيانًا قطعة من

طبق بلاستيك، أو كوبًا مكسورًا، ذات مرة وضعت بجوار كرسيه كرة تنس متسخة اصطادتها له من المصرف، ظلت تركلها أمامه وتجري خلفها.

تنصرف أمي عن أنس لتكمل طهي اللحم، بعد السلق تدَّخر قطعتين محترمتين وتسقطهما في برطمان دهن ليحفظهما من التلف لأكثر من شهرين لا كهربة ولا ثلاجة، لذلك تخترع أمِّي ما يضمن توازنات الحياة، فالفقر كالحصوة في الحذاء، في كل خطوة تتذكَّره. بجوار البرطمان صفيحة سمن صغيرة مليئة بالدقيق، تُغطِّس فيها بيض الفراريج، فلا يبان على السطح إلا الدقيق، هي وحدها تعرف العدد، ما دفنتْه وما تم فقشه. تُغطِّي الصفيحة بنصف بلاطة، ثم تحبك غطاء برطمان الدهن، قبل أن تتأمل اختفاء قطعتي اللحم في شبّورة الدهن تسمع «أنس»، أو بالأدق تسمع الشخشيخة ومواء قطته، لم تنتبه في أول الأمر، كرر أنس المناغاة الحادة المتتابعة وتبعته قطته بمواء متصل، لبّت أمي نداءه. تسمَّرتْ عندما رأت ثعبانًا صغيرًا يتعلَّق في رقبته كالعُقد، القطة تحاول هبش الحبل المتحرِّك بمخالبها، تجمَّدت أمي لحظة للاستيعاب، لم تستنجد بجدي طلبة الذي يجلس على قفص جريد بعد خمسة أمتار، هجمتْ على الثعبان ولطمته بكفها الثقيل، فطار على الأرض فاقد الوعي، ينتفض، تتقلَّص عضلاته، يقترب من الكرسي مرة أخرى، تسرع أمي في اتجاه الحجر الكبير، ترفعه بقوة لا تناسب عزم النساء، تلقيه دفعة واحدة فوق الحبل المتوتر المتسحِّب على الأرض، تجلس على الحجر، تثقل عجيزتها وتدقُّها ثلاثًا. تنتظر قليلًا، ثم تدحرج الحجر كتفحُّص قتلى

الحروب في أرض المعركة، يتَحوَّل الثعبان إلى رقم أربعة، كأن طفلًا خطه على الأرض بعصا. ترفع أمِّي عينيها وهي تتابع أنس، كان مذعورًا، لم يعتد اقتراب شيء من عنقه الصغير إلا أصابع ملاكه الكبير، يبتسم وفي شق شفتيه الموارب بعض ذبابات تقف مصطفَّة في انتظار انسيال لعابه، هشَّت عنه الذباب والتقت عيناه بعيني ملاكه فأدركته الطمأنينة، غامت عيناه وكثر فيهما البياض، أدركتْ أمِّي أنه سيخلد للنوم، سحبتْ عليه طرحة سوداء خفيفة لكي لا يضايقه انتهاك الذباب ولسع الناموس وطواف الهوام.

تمشي أمي متبسِّمة وخفيفة، كفراشة زاهية، فقد تعطَّلت الجاذبية الأرضية في هذه اللحظات.

7

كاد الصقيع أن يُجمِّد أمي وهي جالسة بجوار أنس، وأنس غافٍ في دنيا بعيدة، ربما كان يحلم بالحبل المتوترّ الذي طَوَّق عنقه منذ دقائق.. لمحتُ بعض الأكياس الخفيفة تطير إلى أعلى بشكل حلزوني دوَّار خلف البيت، فيما راحت أمي تملِّس على رأس أنس وتقرأ المعوذتين.

تركتْ أنس يكمل أحلامه وانصرفتْ تفكرٍّ في تصريف أمورها فيما تبقى من اليوم.

كانت أمي تُدبِّر نفسها بجنيهين كل طلعة شمس، فلا تشتري اللحم، وإن كان ولابد فمن الجمعية، ولا تلبس الجديد ولا نلبسه، في الأعياد تشتري لي طقمًا مستعملًا بجنيهين ونصف، موضته تجاوزها الزمانُ بزمانٍ، لم يعد ينظر لها إلا زبائن بعينهم يحفظ الباعة سحنهم، زبائن يفاصلون في التعريفة ويترددون كثيرًا قبل اتخاذِ قرار الشراء.

تفوز أمِّي أحيانًا بملابس مجانية لا تدفع فيها مليمًا، فبعد أن ينفضَّ سوق الخميس في آخر النهار، كان الباعة يحتفظون بالملابس المستعملة ويتخلَّصون من الملابس المستهلكة، كل سوق يرمون من أحمالهم قطعتين أو ثلاثًا من الصعب أن يرى فيها الزبون نفعًا، بنطلون مرقَّط ببقع

زيت، قميص بكم واحد، فِرد جوارب مشكّلة، تلمّها أمي في بُقجة دون علم أحد، وخصوصًا أبي، تصبغ البنطلون بصبغة الأحذية، تقص الكم الآخر للقميص ويصبح صيفيًّا بنصف كم أو شتويًّا تحت جاكيت، توفِّق بين فِرد الجوارب، تخرج من المحاولات بزوجين محترمين، والفِرد التي لم تجد شبيهها، كانت تربطها من الفوهة بأستك وتصبح كيسًا للنقود، أو تضع فيها قصاقيص فائضة من جارنا الخيّاط، تلفُّها بخيوط دوبارة فتصبح كرة قدم، ألعب بها مع فتحي في أيّام الدراسة دون أن يرانا أبي.

في إحدى المرَّات كنت معها، شاهدتها بعيني وهي تلملم الفوائض في بقجةٍ. وذات يوم، وحبًّا في التقليد ليس أكثر، كنت أسير وحدي على حافة المصرف فرأيت صُرَّة ملابس مرميَّة، لا تحتاج إلى تجميعِ محتوياتها، مربوطة من ثلاثة أطراف، وطرف واحد واقع لسانه ومفكوك، اقتربتُ من اللقية، كانت كلها ملابس في حالة جيدة، أفضل من تلك التي تلمَّها أمّي من عُقب السوق، حملتها على كتفي وذهبت مزهوًّا بها إلى البيت، الشيلة كبيرة، رَسيَ نصفها فقط على ظهري وباقي الثقل تعلَّق في الفراغ، خيالي يرسم الصور على الأرض المتشققة من الحرِّ والصهدِ، ستزغرد أمي وتعطيني حاجة حلوة، أقول لنفسي، فقد وفرتُ عليها لمَّ الملابس من عُقب السوق، واختصرت عليها الإحراج عندما تتابعها العيون المتطفلة، جئت لها بملابس أفضل حالًا من تلك التي يستغني عنها البائعون ليروحوا خفافًا. أول ما دخلتُ كان أبي يستريح من إجهاد المواصلات اليومي، يجلس على الكنبة ويلهث، بجواره أمّي تناوله

شفشق ماء، ألقيت بالبقجة أمامهما، خلع أبي نعليه، أسند يده على حرف الكنبة، نكَّس رأسه وتأمَّل ما رميته أمامه:

«إيه دي؟».

فأجبته وأنا أنتظر مكافأة:

«هدوم لقيتها وأنا جاي».

هُنا خرج أبي من المشهد وتصدَّرته أمي، جذبتْني من ذراعي وهي تلضم الكلمات دون فواصل، لم تعطني فرصة للإجابة:

«هدوم إيه يا واد؟».

«مانا يا امّا لمّا كنت معاكي...».

وقبل أن أسترسل وأفضح الدنيا أمام أبي قاطعتْني بحدَّة:

«اسمع يا واد. طرطأ ودانك كويس للي هقوله.. القرف دا تروح ترجَّعه مطرح ما جبته. وحِسَّك عينك توطي على حاجة مرمية في الأرض وتاخدها. انتَ سامع ولَّا لأ».

في ذهولٍ وبلادة رفعتُ البقجة مرة أخرى، دخل أبي إلى المشهد من جديد موجها كلامه لأمِّي:

«متخليش حد من العيال يشيل حاجة ميعرفهاش يا عيشه. بيقولوا إسرائيل بترمي كنابل بالطيارات على شكل لِعَب وعرايس وأقلام وحاجات تانية كتير».

قـال أبـي وهو يرتدي قميصًا من عُقب السـوق، حردتـه أمي وخاطته بغرز ملفقة من لون آخر. توزعت نظرات أمي بين متابعة تعبيرات وجهي والرد على أبي:

«لأ يشيل إيه وبتاع إيه. هوَّ إحنا بتوع الكلام دا؟».

كان رد فعلهـا غريبًا، وحتى هـذه اللحظة لا أجرؤ على مفاتحتها فيما قالته أمام أبي. كانت واثقة من نفسها لدرجة أربكتْني.

8

أبدأ التعرّف على نفسـي وأنا ابن سـنتين، لا يمكنني الوصول لشـيء مفيـد عن هـذه المرحلة دون مسـاعدة الحكايـات، كانت أمـي تحملني وهي تنقل الطوب مع أبي وترصُّه على شـط مصرف، تمسك قبَّة جلبابها الأسـمر وأنا راقد على ذراعها، ورصَّة طوب فوق رأسـها تتمايل، يمشي أبي بجوار حمار مُحمَّل بقش هائش وشكائر رمال منديَّة.

رصَّـات الطوب على وش الأرض أصبحـت جدرانًا، والجدران بعد إتمامها شـيدت بناية، والبناية ينقصها سقف يحمينا من الشمس والمطر، دفـع أبـي ثمانين جنيها ثمن قطعة أرض، أقنع نفسـه بأنه اشـتراها ولكنها كانت وضع يد، دفع الثمن فقط ليتجاوز حارس الأرض عن البناء عليها، شخص اسمه شافعي لا أعرف عنه الكثير.

أمدَّ أبي قطعة الأرض بطوب مسـتعمل من بيوت منهارة سلفًا وسقَّفه بفلـوق نخل، شَـقَّ عـود كافور بالمكنة عشـرين لوحًـا، رصَّ فوقه حصر غاب مدكَّكة بأحبال قش ثم شـبَّع التسقيفة بالطين، طرطش الحيطان من الخارج بمونة ملوَّنة بأُكسيد أزرق، ومن الداخل دهنها بالجير.

بعـد أن انتصبت البنايـة وأصبحـت بيتًا سويسـيًّا. جـاء دور الفرش، تكفَّلت به أمي بالكامل، جميعه خَرْج بيت من سـوق الخميس استعمله قبلنا قومٌ آخرون، وعندما وصل إلينا أصبح أقرب إلى خردة، لا تصلح له أسماؤه التي كانت مخلوعة عليه من قبل.

بـدأت روحـي تنبت من الربط بين الأشياء وليس من الأشـياء ذاتها، ملامـح مَـن حولي تسـبح فـي دخان لا يسـتقر على لـون، كانـت البداية التـي عرفـتُ منها بأننا فقـراء مرتبطة بالمدرسـة، قدَّمتْ لـي أمي أوراقي فـي الصـف الأول الابتدائـي أخذتني معهـا قبل بدء الدراسـة، ألبسـتني «شـورت» وقميصًـا نبيتيًّـا له أزرار كثيـرة ولامعة، فرحتُ بهـذا القميص بالـذات لأن أزراره كانـت مُذهَّبـة وكبيرة، رآني عيل صاحبي وأنا أمشـي مزهوًّا في حوش المدرسة:

«دي بلوزة يا واد. أنتَ عندك إخوات بنات».

«لأ».

«تبقى بتاعة أمك».

هبشـتُ الولـد، علَّمـتْ أظافـري فـي رقبته وحفـرت أخاديـد رفيعة حمراء.

وأنـا في الصف الأوَّل الابتدائي، لم أكن قد تخلَّصتُ بعد من سـطوة الأحـلام، كانـت تتماهـى مـع الواقع بشـكل غريب، لغـة أحلامي كانت مختلفة عن الواقع الذي أرى فيه أبي وأمي بشكل أكيد، اعتبرتُ الأحلام

واقعًا آخر غنيًا عن المسـاءلة، أخشى أن يغيب عنِّي ذات ليلة ذلك العالم السـاحر، لا أنـام مغمـض العينين، أفتحهمـا على الآخر كمـن ينتظر بدء عرض سـينمائي شـيِّق، تأتيني مخلوقات هلاميَّة في صـورة حُلوة دائمًا، أغلبهـم بنات أكبر منِّي قليلًا يلمسـن أشـيائي المحرَّم علـيَّ التفكير فيها، إحسـاس ممتع أتمنَّى ألا يغيب أبدًا، أن يسـتمر بشكل دائم، حتَّى ولو لم أستيقظ بعد ذلك أبدًا.

كان ذلـك فـي بدايـة المرحلة الابتدائيـة، أمَّا في نهايتهـا، فقد تغيَّرتْ الرؤية أصبحت أحلم بمعانقة شـيء لا أعرفـه، أتوه في دوائر لا أخر لها، ينسـكب مني سـائل لطيف، قوي ومنعش، أفيق بعده، كأنه جنًّا خرج من أظافـري، يُختصر السـائل بعـد صحياني إلـى بقعة صفـراء لا تجلب إلَّا خضَّة طارئة، أسـأل نفسي، هل أبول على نفسي؟ أخرجتْني أمي من هذه الدائرة الجهنمية بحيلة..

كانـت تدوِّر ملابسـي الداخلية في الطسـت، لمحت البقعـة فتركتها، ونظرتْ إليَّ، ثم قالت وهي تداري فمها بطرف طرحتها وتضحك:

«يخيِّبك، أنت كبرت يا واد».

أبتعد عنها، أبحـث عن متعلقات على الحائط وأتأملها، كفِّي عرقانة، لا أجد كلمات أردُّ بها، تضيف أمي:

«خلِّي بالك من نفسك يا حبيبي، ومتلعبش كتير مع البنات».

لـم أردَّ أيضًـا، لـم أفهم المقصـد من كلامهـا، كأنها لم تضف شـيئًا، تركت الغسـيل ونشـفتْ يديها في جلبابها الكسـتور، وضعت يدها على كتفي، وعبَّرت بيدها الأخرى عن وجهة نظرها:

«أنت من دلوقتي بقيت راجل».

ثم ملَّستْ على شعري، انسابت فقاعات صغيرة من الصابون على خدي.. كنت أحاول ترجمة ما تقوله لي وتحويله من كلمات مبهمة إلى إحساس يمكنني استيعابه.

9

جـاء جـدي طلبه لزيارتنا فـي يوم بعيد، قالت أمي أنـه لم يكن يحمل سـوى برواز كبير تحت إبطـه مغطى بورق جرائد؛ ظـل محتفظًا به مغلقًا لأكثـر من سـنة، فتحه وعلقه عندمـا دهن أبي بيته الملِـك، جدي يصافح الرئيس جمال عبد الناصر، ينحني أمامه والرئيس يضحك، يمسك بصك الإصـلاح الزراعـي، كانت هذه الصورة هـي التي نشـرتها الصحف بعد ذلك في عيد الفلاح.

منـذ رأيـت جـدي وهو بهـذه الملامـح، عجـوز مكرمـش، لا أدري لمـاذا كان أبـي يكرهـه، لا يدَّخـر أي فرصـة لإحراجه، اسـتوعب جدي طبيعـة العلاقة بينهما، لم يعد يعامله بشـكل مباشـر، دائمًا بينهما وسـيط مـا، واختـرتُ أنا لعـب ذلك الـدور، لا يعطيه أبي شـيئًا، يسـلِّمه لي وأنا أوصله لجدي لذلك كنت الأقرب إليه، نجلس معًا نأكل ونشـرب وننام، تحملنـي أمي من سـريره في أغلـب الليالي. أحب الجلوس معه بسـبب خياله الجامح، كان يسـتمتع بتحويل شـيء ما لشـيء آخر تمامًا، فالطاقيَّة التي يلبسها كانت ذيلًا لجلباب، رسمها للخيَّاط على جلدة كراسة. وكان يُركِّب في لباسه جيبًا لشيل الفلوس، هو الذي خاطه بإبرة تنجيد ودوبار، ومـن سـلك ملقى في الزبالـة وعمودين كربون صنع سـخان كهربة، كان

يسرق التيّار من عمود نور أمام دكّان بقالة الأطرش ويعمل عليه شايًا. أمّا أفضل اختراعاته بالنسبة لي، فقد كانت مرجيحة صنعها من أعواد جريد، ربطها في السقف وبطّنها بشبكة صيد قديمة، ثم وضع عليها ملابس مستهكة لا نستخدمها، تمرجحت عليها كثيرًا، كنتُ أنسى أبي ورائحة المصرف وأنا أهتز في بطنها، بل كنتُ أنسى صانع المرجيحة، جدي طلبة نفسه.

بعد أن اكتمل البيت دهنه أبي بالجير ثم بنى له مصطبة، كان جدي طلبة يفضّل الجلوس عليها، يرد السلامات على كل من هب ودب. يتقرفص فوقها وهو يهيئ نفسه لاختراع شيء جديد. أراه يجلس و أمامه ساعة قديمة، يغمس سن مفك ممغنطًا ويلتقط به ترسًا نحاسيًّا صغيرًا من تروس كثيرة مفكّكة، ينثر حوله بقايا الزمنِ، وكأن الساعة فرقعت فيها قنبلة، يحاول ضبط الساقية ويفشل، كلما ركّب الترس كان يحكُّ في عمود العقرب، يعيد المحاولة مرات ولا يحالفه التوفيق، لا تُنفخ روح الحركة في الأشلاء، يلملمها، يضعها في كيس بلاستيك شفاف، يرميها خلفه ثم يجرِّب حظه في بوصلة لا تعمل، يخلع مؤشرها، يدير قُرصها فى كل الاتجاهات، يظل المؤشر صامدًا لا يترك موقعه.. يفشل في إصلاحِها.. يستخلص بعد محاولات عديدة أنها بوصلة فاسدة من الأول، وأن العيب ليس فيه.

يقوم بكسل من على المصطبة، يتجه نحو الكنبة الوحيدة في البيت، يرفع مرتبتها الثقيلة، يفتح بابًا به صندوق سحّارة، يدفن البوصلة بين

كراكيب الأجهزة الكثيرة التي يُجرب فيها ذكاءه، وكانت تنتهي أحيانًا بإثبات عكس ذلك.

أعود آخر النهار بعد المدرسة، أسمع جدي طلبة يقولها دائمًا:

«يا واد. انتَ يا وله».

يكررها، يسعل، يتأملني بنظرةٍ ذابلة:

«نعم يا جدي».

يطرقع أصابعه في تروٍّ ويبحث حول مرتبته المبقّعة عن شيء يسلّيه، أو يطلب سيجارة، دائمًا أخبئ له سيجارة أو اثنتين في جيب بيجامتي أو تحت طبق الطعام، يدسُّ السيجارة برفق، وربما بِرقّة في علبة من صاج منقوش، عليها رسمةٌ واضحة وزاهية، سنبلتا قمح يطوقان وجهًا نحاسيًّا يبدو لشخصٍ أجنبي، يقول جدي طلبة أنه ورثها منذ سنوات بعيدة ولا يعرف على وجه الدقة مَن تَخُص أو لأي حقبة تاريخيَّة تنتمي؟ يحتفظ بها منذ أن كان يمتلك عشرةَ فدادينٍ في قريتِه صفصفوا على نصف فدّان، يذلُّنا به ليلَ نهار وكأنَّه نصف عزبة.

جدي لا ينام في اليوم سوى ساعتين أو ثلاثًا، ينشغل بقية اليوم في متابعة حركة البيت كله في صمتٍ مخيف، يقول أبي إن جدي «أصنج» لا يسمع جيدًا، لذلك تدور أشد الأحاديث خصوصيَّةً على مقربةٍ منه، أحيانًا ألمح فى حديثه ما يثبت أنه يسمع كل شيء، وأحيانًا يتجاهل الجميع ويكيِّل السباب لنا وللعيشة والزمن.

لم نكن نعمل حسابًا لجدي طلبه بالمعنى الحرفي للكلمة، لا يُعتبر موجودًا إلا عندما يحين وقت الطعام، فنمنحه بعضًا مما نطبخ، يشخط فيه أبي بقسوة لمنعه من التدخين:

«إنتَ مش حترجع إلا لما تولَّع فينا».

«محدش بياخد أكتر من نصيبه».

يرد جدي بنفسٍ مكسورة، لم يكن أبي يعطيه اهتمامًا كافيًا، بل لم يكن يعطيه اهتمامًا أصلًا. كنتُ أعتقد أنه جدي لأبي، عرفت أنه عمَّه بعد سنواتٍ طويلة. بقِي ليحكي عن فتراتٍ سقطت سهوًا أو قصدًا من ذاكرةِ العائلة، أحداث ربما لم يرها أحدٌ غيره، أشرار العائلة وطيبوها، هو وحده من يصنِّفهم ويجدول إنجازاتهم.

أراه الآن يسحب نفسًا، يبلِّل لعابه السيجارة، يضحك، تبان لثته الوردية الغامقة، يقول:

«اقعد».

يستيقظ جدِّي ويهرش في رأسِه، يمطُّ شفتيه ويحاول تثبيت صور الأشياء من حوله، يتأملني قليلًا ثم ينظر في اتجاهِ المطبخ. بعد أن تخطى جدي طلبة الثمانين، أصبح يتحدث عن أشياءٍ تظهرُ أحيانًا على شكلِ حِكم، وأحيانًا تبدو متناقضة وبعيدة عن بعضها بُعد السماء عن الأرض.

أجلس بجواره فلا ينطق بكلمة، يتفحصني بعينين ضيقتين، لا يستطيع دفع دخان السيجارة خارج رئتيه، تتقلَّص ملامحُه، يبتلع الدخان، يقول:

«أنا شامم ريحة رز وشوربة. قول لي بقى هوَّ اللي أنا شميته ده صح؟».

أهزُّ رأسي بالإيجاب، تنبسط ملامحه كطفل تذكَّر مكان لعبته، يملِّس على صلعته ويسألني:

«أمك عملت حسابي في المناب؟».

«طبعًا يا جدي».

أجيبه، يتأمل دوائر الدخان الحلزونية وهي تذهب في رحلةٍ قصيرة من فمه إلى السقفِ، تلبد بين عروق الخشب والبوص، تحوم الدوائر البيضاء حول صلعته القطيفة الناعمة. جدي طلبة يفقد كل وسائل القضم والطحن، فمه خالٍ من الشراسة، يتحرك فَكُّه بكلامٍ ودون كلام، يستحلب شيئًا وهميًّا لا نراه جميعًا، تعمل أمي حسابها وتصنع له البدائل، فتة طريَّة، مكرونة بمرقة، أرزًا بملوخية، تنزلق هذه الأنواع من الأطعمة سريعًا فور أن تلمس الفوهة، تشق طريقها إلى الخزان دون احتياج لوسائط. يسحب نفسًا آخر، يخرج الدخان مندفعًا من فتحتي أنفه الكبيرتين، يزدرد الهواء ويقول:

«على فكرة. ريحة اللحمة حلوة أوي».

لا أرد عليه، أتأمَّل ملامحه وهي تجاهد من أجل التعبير، يلتفت والسيجارة ترتعش بين أصابعه، كمن يقتفي أثر مشاهدِ متتابعة لسينما خيالية لا أحد غيره يراها.

«امسك يا حبيبي بسرعة الطبق سخن».

تمد أمّي يدها، تقدِّم طبق الأرز لجدي طلبة مدعمًا بكوب شوربة، ينز المرق على قعر الطبق، تجذبني من ملابسي، بالكاد أرد يدها، تسحبني مرَّة أخرى، أطلب منها طبقًا مثله، بعد تردد مرتين توافق أخيرًا، تمنحني طبقًا أكبر منه، يلمحه جدي ويبتسم، أقذف كتل الأرز لفمي، يلحس جدي يده وما تبقى في القعر، الطبقان يفرغان، أقترحُ على جدي طلب «كمالة»، يوافق، يجذبني من ذراعي، يهتز بالكامل، يهلل كالأطفال، يقول:

«بس قول لأمك إنك أنتَ اللي عاوز رز وشوربة مش أنا».

بعد أن ننسف محتويات الأطباق، أمد له يدي بسيجارة، يشعلها وهو يطرقع عظامه ويتمطَّع، يتثاءب ويساوي بيده المرتعشة شعيراته المتبقية فوق صلعته المجعَّدة، ثم يعود إلى تأملاته، تختلط يقظته ببحور ذكرياته، لم يُحدِّث اليوم أشخاصًا ليس لهم وجود، ولم يجادلهم في أمور لا أدري عنها شيئًا كما كان يفعل في أغلب الليالي.

10

عندما حملتْني قدماي وأصبح بإمكاني أن أقف وحدي في طابور خبز؛ بدأتْ ذاكرتي تحدد لأبي مكانه المناسب في دهاليزها، كنتُ أرى نفسي بمثابة نفر من الأنفار في وسيَّته، يأمرني، وعليَّ السمع والطاعة، بدءًا من شراء الدخان، مرورًا بتصليح ما يتلف من حلل وكراسٍ وشباشب مقطوعة وتسليك المجاري التي تطفح أكثر مما تسير لحالها، وانتهاءً بسلف «حتة بخمسة» من عمي الميسور الذي يعمل مساعد أمن بمطار القاهرة، يأكل أولاده المربى كل يوم، ويمسحون وجوههم بمناديل معطرة، يشترون العسلية كاش وأكياسًا ولَيس مثلنا فرطًا أو شككًا.

عندما أقلع أبي عن التدخين، كان يرسلني لشراء «المضغة»، وبعد دعكها جيدًا ببلحة جوزة الطيب ومسحوق الكربونات يستحلبها، ثم يقذفها كورًا صغيرة، تطير بقوة الزفير لازقة في قفا من وضعته الأقدار أمام القذيفةِ، تمسك في الأرض كالصلصال، تعدد الكور الملتصقة بالبلاط يحل مكان أعقاب السجائر، تحمل جميعها رائحة تبغ فوَّاحة، كريهة. لا أحد يبيع مضغته سوى الأطرش، والأطرش ليس لقبًا ولكنها عاهة، كان بقَّالًا يتمتَّع بأذنين كالمقاطف، يؤكد دائمًا أنه يسمع دبة النملة، لكنه في الحقيقةِ لا يستطيع سماعَ دبةِ ديناصور، يؤكد دائمًا على وجود الشيء

الوحيد الذي يفقده. وكانت لأبي صفحة دائمة في كراسة مبقعة يحتفظ بها، جلدة مزيَّتة يتخطاها ويصل للصفحة التي يريدها بالتمام، يُدوِّن فيها أسماء زبائنه أصحاب الجيوب والبطون الخاوية. أناديه، يعلو صوتي وتكشر ملامحي والرجل شارد في عالمه الصامت. أضع له الشلن على بنكه الخشبي المزيَّت، وأقول:

«بشلن مضغ».

«ملح».

«يا عم بقول لك مضغ».

«ملح».

«يا حاج بقول لك مضغ».

«ملح».

أوشك أن أسبُّه، أتراجع عندما أتذكر زجاجة الزيت التي رماني بها ذات مرَّةٍ لأن إشاراتي وحركة شفتيَّ لم ترق لخياله. تأملني بنظراتٍ ثابتة دون كلام، كضيف قادم من بقايا كابوس، تابع رد فعلي، صدغي ينز الزيت في عِبِّي، انفتحت الزجاجة فوق رأسي من شدة القذفة.

لا أحكي لأبي ما حدث، أعطيه الدخان وأتابعه وهو يعجن خلطته في طبق ألومنيوم، لا أسأله عن شيء، أتفرج عليه من بعيد، فهو من يُنفق عليَّ، لذلك لا يجوز لي أن أضيفَ لما يقول، أو أحذف، ولذلك كان يُصدِّع رأسي ليل نهار:

«أنا اللي ربيتك.. اللي ياما صرفت عليك.. علِّمتك وأكِّلتك وشرَّبتك.. وعملت منك بني آدم».

كثيرًا كنت أسأل نفسي:

«ما دام هو من عمل منِّي بني آدم، فما عمل الله إذن؟؟».

جعلتني هذه الإحسانات أشعر بذنب خفي، ورغم ذلك أشفق عليه أحيانًا، أسعفه بشفشق الماء من الثلاجة عندما يكحُّ بالليل، أناوله مخدَّة يسند عليها كوعه، وهو يتفرج على المسلسلِ العربي المسائي أو فوازير رمضان، يتكئ على جنبه بعد الغداء ويفقع «مسموعًا» عظيمًا، فشل بعد جهد في تحويله إلى «مشمومًا» فقط، فيفضحه المسموع أكثر من المشموم الذي يتفرق ريحه بين القبائل.

بعد انتهاء المسلسل، يسخِّن الماء في كنكة صغيرة، يجمع قشور الصابون المتبقية من الاستخدام، يعجنها في علبة بلاستيكية حائلة كانت عبوة مربَّى أو طحينة، تصبح العجينة بعد عملية تدوير سريعة معجون حلاقة يكفيه لعدة أسابيع.

فرض عليَّ ذات ليلة غبراء أن آكل طبخة خبيزة، اشترتها أمي من عم شافعي.. من يكون عم شافعي؟ تلك قصة أخرى، ربما لاحقًا سأتذكرها كاملة. المهم.. أكلتُ الخبيزة غصبًا عني، ونتيجة لذلك استفرغتُ الخلطة الخضراء قبل أن تلمس قعر معدتي، أتظاهر بطاعته لأخرج من الموقف المفروض عليَّ بأقل خسائر، تمامًا كما كان أخي فتحى يفعل

عندما يتظاهر بحلِّ الواجب، ورغم تفوُّقه لم يعجب أبي إلاَّ الظاهر، يريد أن يرانا نذاكر ليلًا ونهارًا، فكان فتحي يخبئ الكوتشينة تحت الطبليَّة، يسحب أبي أنفاسًا طويلة وتبدأ الموسيقى التصويريَّة، يعلو الشخير، يعانق النجوم عند السبع الطباق، يرتد إلينا على هيئة صدى صوت، يسحب فتحى الكوتشينة المعلَّقة بأستك في حلق الطبلية، نلعب براحتنا حتى تتوقف الموسيقى التصويرية عن التدفق، نشعر بالخطر، يفرد فتحي كتابًا مقلوبًا فوق ورق اللعب، يصحو أبي من نومه وقبل أن يفتح عينيه يلطع كل منَّا قلمًا على قفاه، ندفن رأسينا بين أكتافنا خوفًا من بطش يده التي كانت كخُفِّ جملٍ.

هذا هو أبي، عامل «السويتش» في قصر العيني، كان يقطع يوميًّا ثمانين كيلومترا ذهابًا وإيابًا وهو محشور على سِلَّم أتوبيسٍ 52 بشرطتين، يصل يوميًّا بشنطةِ خبز ساخن وثلاث بيضات مسلوقة تبقت من وجباتِ مرضى القصر البائسين.

11

بعد أن أصبح أبي صاحب بيت ملك، وضع في عُمق البيت رفًّا ارتجاليًّا وأسماه مكتبة، لا يخلو من مصاحف بأحجام مختلفة متهتكة الكعوب صفراء الحواف، فاقدة لبعض الصفحات ومردومة بالغبار، تطل المكتبة على مجرى الرشَّاح مباشرة، مفتوحة ويهبُّ عليها من كل اتجاه هواء ثقيل صعب الاستنشاق. علَّق على جميع الحيطان براويز صغيرة تضم أدلَّة إيمانه، آية الكرسي، المعوذتين، أسماء الله الحسنى. انتشرت على الحيطان أحاديث نبوية شريفة عن فضل الرضا بالقدر، وأحاديث قدسية عن طرد من لا يصبر على البلاء من تحت السماء، وبعض أقوال مأثورة لعلماء يصفون الأراضين السبع والسماوات السبع، يحسبون المسافة التي يقطعها المذنب حتى يصل من الثقوب الكونية البعيدة، فيمكن إدراكه بالأبصار المجرَّدة. كانت أوراق منسوخة عن طريق مكنة تصوير رديئة، تجهد العين في فك طلاسمها. يلصقها أبي بـ«بلاستر» شفاف لتصبح في مستوى الرؤية، يبوِّشها المطر وتخلعها الرياح، يستبدل بها أوراقا غيرها أشد بهتانًا من الأولى.

لليالٍ طويلة ظلَّ ينقل صفحات من كتاب، قيل له أن من ينسخه ثلاث مرَّات سيُبنى له قصر في الجنَّة، وكنتُ أشفق عليه من هذه المهمَّة الشاقة، عينه تدمَّع وعنقه يطقطق، كان يستخدم أقلامًا سيئة الصُّنع، تزيد من ضعف نظره وتُحيله في نهاية الليلة إلى ما يشبه العمى. عندما أنهى صفقته الناجحة مع الله، ركن ما أنتجه فوق نفس الرف الذي يحمل كتبه، تكوَّمت فوقها طبقات من الغبار واتخذ منها العنكبوت مزارًا دائمًا.

رغم الإيمان الذي كان يخيِّم على بيتنا فالفرحة لم تطرق بابنا كثيرًا، يرث أبي التقوى اللفظيَّة ويحفظ كتاب الأربعين النووية، يحضر خُطب الجمعة من أولها، يقف على سجادة الصلاة بنفس مكسورة وكتفين مرتخيين، يصوم ويسلي صيامه بِلغْني أنا وفتحي، أو بالنظر لأنس بغيظ مكتوم، ثم ينفجر فينا بشتائم قاسية وطلَّة كئيبة، يسب للعالم ثم يستغفر، وأحيانًا يستغفر دون أن يسب.

أمَّا أمي فحسمت أمرها باتباع أركان الإسلام الثلاثة (فالحج بعيد المنال والزكاة من اختصاص أبي).

كانت تزيد من مساحة تحكُّمها في الأحداث، وتهمِّش دائمًا المساحة المخصصة لأبي، كنت أشفق عليه أحيانًا من هذا الدور الصغير الذي أصبح يلعبه في الحكايات بشكل دائم.

كان شأن أبي كبيرًا في مخيلة أمي فقط وقت حضوره، أما في غيابه فتتحدث عنه كأنه طفل غبي لا يمكنه السيطرة على شيء، ترصّ نواقصه

وتتباهى باكتشافها، وعندما يفعل ما يستفزها تندب حظها بصوت كالوشوشة: «البيض الخسران بيتدحرج على بعضه» وكان غياب أبي شبه الكامل عن البيت يشجع استفحال هذه الصورة، عاش يبحث عن الرزق وأكل العيش أكثر مما عاش معنا حسيًّا ومعنويًّا، يشيل الورديات بدلًا من زملائه من أجل خمسة جنيهات للنوباتجيَّة، وكان يذهب يومين بعد الظهر في الأسبوع إلى عيادة خارجيَّة لطبيب من قصر العيني، يُنظِّم المرضى ويتقاضى بقشيشًا ولا يعود إلَّا قرب منتصف الليل.

أحاولُ ترميم الصور الفقيرة التي كانت تصلني متقطِّعة عبر ذاكرة أمِّي، أحاول تصوير الجو بما يخلق منطقيَّة للأحداث، كنتُ أريد تكوين صورة لما قبل تشكُّل وعيي، منطقة مُغرية إلى حد بعيد، تخيَّلت فيها نفسي وأنا جنين أتقلَّب في قراري المكين، بيتي الناعم، حوضي الملئ بالماء. حتَّى الآن أجد في قرفصتي فوق السرير ووضع يديَّ بين ركبتيَّ ترسبات من هذه المرحلة الغامضة.

12

أوضحتْ لي أمِّي عبر حكاياتها الأولى أن الصورة التي رسمتْها لأبي وأنا صغير كانت أنقى مما هي عليه في الواقع، تشكَّل وعيي على صورة أبي التي رسمتْها أمِّي وأصبح من الصعب عليَّ أن أغيِّرها، حتى لو ثبت لي عكسها.

بعد أن أصبح بإمكاني اللعب مع فتحي في الشارع، تأكدتُ أن أمِّي كانت مُحِقَّة بعض الشيء في تصوراتها عن أبي، فقد منعنا عن الاندماج مع العالم والتماهي فيه، أو على الأقل منعنا عن محاولةِ فهمه، لم نرَ ما حولنا كما هو في الحقيقة، ولكننا كنَّا نراه بالنكهة التي يريدها هو، فأصبحتْ الدنيا دون وجوده لها رائحةٌ مختلفة وطعم أفضل. كان صوته يطل بعبارات رنانة ولها معنى واحد تقريبًا، أننا جميعًا غير مؤهلين للتعامل مع الأخطار التي يمتلئ بها العالم، ولو حدث وتعاملنا فيكون ذلك من خلاله هو، لا من قدرات مخلوقة فينا نحن. كان يشخط فينا بفظاظة وكأنه نادم على إنجابنا، أو يتمنَّى عودة الزمن للخلف حتى يأتي بذريَّة أفضل منَّا، وكان نتيجة ذلك أن تقاسمنا العالم أنا وأمي، مَلكْنا تصورات بديلة للواقع وألَّفنا سيناريوهاتٍ تتناسب مع خيالنا.

اختصر أبي أمنياته كُلَّها للفوز بموطئ قدم في الجنة، وكان يرى أن هناك مصعدًا سحريًّا يربطه بالسماءِ، يرضى بالقدر أيًا كان هو، وآماله كلها مرتبطة بأشياء معنوية لا يمكن لمسها. أما الحياة التي أعرفها فهي دائمًا مصحوبة باللعنات، ومرتبطة في ذهنه بالأبالسة والأشرار الفاسقين.

يسعفني الخيال دائمًا بتبديل المناظر المقزِّزة والروائح الكريهة بعالم آخر أكثر رقيًا وأوفر بهجةً، حاولت أن أصنع عالمي الأفضل بيني وبين نفسي، في دماغي أرسم قصورًا افتراضية ممكنة.

عندما عجز أبي عن تغيير حالنا، طُمِر في نفسي سحر الطفولة، أصبحتُ طفلًا تكسو ملامحي تجاعيد الرجال، أو رجلًا في جسد طفل، عبوسًا طوال الوقت وأفكر كما يفكر الكبار، أمشي كما يمشون، تبددت أحلامي في اللعب بالكرة أو تأجير درّاجة. تَضَارَب ما أتمناه مع ما أعيشه بالفعل، فصنع ذلك الخليط مخلوقات هجينة أفرزها خيالي، دائمًا كنت أرى شخصًا مشلحًا جلبابه ومقرفصًا، يعطي ظهره للشارع والناس ويعطي وجهه لمجرى الرشّاح الأزلي، يضغط على جهازه الهضمي ليفرغ محتوياته ويفك زنقته. كانت البيوت المتلاصقة ملقفًا لكل ما يثير النفس ويصيب مراكز البهجة بالاشمئزاز، يتخلَّص الناس من فضلاتهم في الخفاء، وتأتينا في العلن عبر المجرى الدائم من خلفنا، بقايا أطعمة وقمامة تتكوّم تلالًا تحجب عنا رؤية الشمس، والمزنوقين من عابري السبيل كذلك، يقرفوننا ليل نهار بروائح صعبة الاستنشاق، حتى العصافير كانت تعملها فوقنا وكأننا نختار عز زنقتها ونضبط رؤوسنا تحتها تمامًا.

يصنع الخليط رائحة جهنمية لا تطاق، جيف الحيوانات تصلنا عن طريق منح المصرف الذي لا يتوقف عن الجريان، أنظر للماء البطيء القابض، أشعر بأنني متدثر بلحاف من رصاص تُكوّنه عناصر تجمّعت على مر القرون، رائحتها تخترق أنفي، حشرات محروقة ولفت فاسد وروث خمران، ملابس هالكة وطبيخ حامض وبقايا خبز مبرقش بعفن أخضر هش.

كل هذه الروائح تعشش هنا، في أنفي تسكن، الماء بالصابون الذي ترشه النساء بكثافة صباح أيام الجُمع، النجيل الأخضر المروي من ماء المصرف، رائحة عفن يصيب الزرع حين تغرقه المياه، زبل الحمام وروث الماعز والبلاستيك المحروق، وتسكن هنا روائح قشر ليمون وأحشاء سمك وبرادة حديد، أكداس من كل ما لا يحتاجه البشر، طبقات من ركام وتراب تتفجر من قلبها حرائق صغيرة، براكين لا تصهر الأشياء ولكنها تلسعها على مهل، شموع صغيرة دائمة الاشتعال، تلال القمامة تنتج أدخنة من كل جنباتها، يحرسها غاب منتظم الطول لا يحترق، كل ذلك لم يكن يكتفي بالتعشيش في أنفي فقط، كنت أستشعره يتوغّل في كل كياني، يعيد رسم قناعاتي ويحدد تكويني من جديد.

حدث شيء عرفت من خلاله أن الأيام تصهرني وأكبر، أصبحتُ أقول «الله» عندما أرى شيئًا يعجبني.. عندما أندهش.. لم أشعر أبدًا بأن الكلمة تعني بأني أتعبَّد.. نشأت علاقة جديدة بيني وبين كيان كبير، علاقة ليست مبنيَّة على كلمات أبي، ولا قناعات أمي.

13

خرجتُ مع أبي في الصباح وعدت آخر النهار.

هذه المرَّة كان يحمل كرتونة على كتفه:

«هات الكيس البلاستيك اللي مرمي على الأرض ده».

يقـول أبـي، أنظـر لاتجاه يـده، أرى كيسًـا مجعَّـدا لم ينـل المطر منه بكامله، أسـحبه وأعطيه له فيرميه على الكرتونـة التي يحملها بحرص أُم تخشى على وليدها من نزلة برد.

مـن آخـر الشـارع، تبـدو البيـوت كـدودة كبيـرة نائمـة، كلمـا اقتربنا تضخمت الدودة ووضحت تعرجاتها، الشـارع ساكن ويستعد لاستقبال الظلام، رغم المغرب الذي لم يؤذن بعد.

مَـلَّ اليـوم من الضجيج فقـرر أن يسـتريح، تجرد الناس مـن أقنعتهم التي لبسـوها طوال يوم شـاق ومكرر، فقرروا أن يعودوا إلى أنفسـهم في عالمهم الصامت.

يبحث أبي عن الخطوة وتتوه قدماه في الطين، يسـحبهما من الانغراز بصعوبـة، البيادة السـوداء ثقيلة، يزيد الطين من انشـدادها للأرض، يقف

قليلًا، يشـاهد بعيـن خياله شـكل التليفزيـون المضيء ومن فوقـه تتقافز صـور الممثليـن والممثـلات، الأحياء منهـم والأموات، لـن نذهب بعد ذلك للفرجة على التليفزيون عند عمي الميسـور الذي يمسح أولاده كل صبـاح وجوههـم بمناديل منديَّـة بالعطور، ولن أقف أمـام بنك الأطرش لأرى جزءًا من قُصَّة شعر نيللي بعد مدفع الإفطار.

أثنـاء السير يبالـغ أبي فـي التـوازن، ما يشـغله بالأدق ليـس وقوعه، فلن يكلِّفه ذلك سـوى المشـي تحت المطر مرَّة أخرى لتتكفل القطرات بغسـل رأسه وملابسه، ولكن المشـكلة تكمن في خوفه من وقوع كرتونة التليفزيون.

تحوَّلـت قطرات المطـر الخفيفة إلى زخات زلجـت الأرض، مجرد التـوازن أصبح يحتاج لمجهود، أمشـي بجوار أبـي، كان مزهوًا بكرتونته الكبيـرة التي يحملها بحرص ويخشـى عليها من قطـرات تُبلِل محتواها. كل بضـع خطـوات يوازن بين أطراف الكيس البلاسـتيك فـوق الكرتونة ويسـرح، يتخيـل الصندوق المضـيء بكائناته المسـخوطة وهـم يبعثون على الشجن أو الابتسام، وكذلك الوعاظ الأتقياء المتخمون بالعلم.

يقف أبي كل خطوتين، يُعدِّل وضع الكرتونة الثقيلة:

«لسه كتير يا با؟».

«هانت.. كلها فركة كعب».

الطريق للبيوت لا ينتهي، لا يظهر بيتنا على مدد الشوف، فقط انحناءة غابشة على شكل يد فنجان نائمة، وطوال الطريق تمشي معنا مياه خضراء تطفـو فوقهـا شـنط بلاسـتيك وجراكـن فارغة، إطـارات سـيارات وفرد بيادات، بقايا قُلل وكراتين مقطعة، زجاج مكسـور وأعجاز نخل، أحشاء طيور ولحم متفسِّخ، عظام نخرة وحَشْية كرسي منهوشة وبطّة ميّتة. تحت سطح السـائل الجاري بقليل ينام زرع بُنّي مجعد كشعر مستعار، يتشابك جماعـات وينضـم لعائلـة المخلَّفات، يعوم حسـب اتجاه التيـار. تلتحم المكونـات فتصنع غطاء يشـبه الأرض، يغري العيـال باللعب والقفز من شط إلى آخر.

تتكفـل البكتيريـا بتحلل كل شـيء وإعـادة تدويره فـي خلقة جديدة، الكائنات الدقيقة المطمورة يعاد تشـكيلها كل ثانية تحت أقدامنا، ومثلما يأتي ضيوف إلينا من البشـر عن طريق الباب الأمامي المرقَّع بالأخشـاب والصاج، كان هناك ضيوف آخرون يفِدون من باب البيت الخلفي، فئران وعِـرس ومخلوقات لزجة لا اسـم لها، تخرج مـن المجرى وتلف حول أعـواد الغـاب، كائنات تشـبه حوافر الخيل، دائرية مبططـة لا ملامح لها، تتشبّث بأعواد الغاب وتعطيه القوة والتماسك، تهتز هزات متشنجة حتى تصبـح بعـد مرور أيام سـمادًا يُغـذِّي الغاب. تنتشـر الروائـح كغبار طيار وقلوي، بنعومة تتسلل الرائحة فتعوق الرئة عن عملها في سحب الشهيق وطرد الزفير.

لو آثر أبي السلامة سيمشي مسافة طويلة أخرى. كل خمسمائة متر تقريبًا ماسورة في قُطر جذع بني آدم، نائمة على عرض الرشاح، وكل كيلومتر يمتد جسر. يقف أبي أمام الماسورة. يتقدَّم وهو يحمل الكرتونة بحرص مبالغ فيه، خطا بثقة ليُلهب حماستي. عند منتصف الماسورة ترنَّح أبي، وتجمدتُ أنا على الشط الآخر، كادت قدمي تزلف ولكني تماسكت. عبرت إلى الجانب الآخر، عيني على الكرتونة، وصل أبي بما يحمل، هش فأرًا مبتلًا جرى على الكرتونة بسرعة البرق، أسأله:

«قربنا؟».

«هانت.. كلها فركة كعب».

تمر أمامنا عربات كارو بصناديق حديد زرقاء وخضراء تحمل خردة أو سباخًا، يقودها أطفال دون العاشرة، العيال يتلفَّعون من البرد فلا تظهر إلا أعينهم.

تترنَّح خطوتي وتفقد اتجاهها، تلف رِجل على أخرى وتتصلَّب عروق قدمي. لم يبق من المشقة إلا اجتياز المعبر الممتد بالعرض على الشطَّين، ماسورة تنقل المياه من الداخل وتنقل البشر من الخارج. بالنهار يقفز عليها عيال حفاة، وبالليل تتجول فوقها أشباح من قضوا في قعر المصرف، كانت الماسورة تُستعمل ككوبري مشاة تسير فوقها النساء وهن يحملن أنبوبة بوتاجاز أو قفص عيش أو جركن مياه، العبور له قدرة كبيرة على الإغراء فوق أمواج خضراء، لها لون قابض ورائحة فتاكة.

يبرك الليل على المكان، تبدو البيوت كأقزام متساندة تستعد لجولة مصارعة في حلبةٍ مستطيلة. يقف الغاب الطويل كحارس يقظ ومتوثب، ومياه الرشاح زيتيَّة مقبضة، لونها رمادي وهديرها لزج، إضاءات ضعيفة تطل على استحياء كشموع على وشك النوم، وبقايا أصوات أجهدها النزاع اليومي للوفاء بمتطلبات الحياة، وقبة كبيرة من الناموس والهوام تظلل البيوت، السائرون في الشارع لا يزيدون على أصابع اليد، يدقون الأرض ببطء، عيال قليلون يمشون في الشارع ويقفزون في الوحل، تلتصق سراويلهم بأجسادهم، في الطين تهاجمهم همَّة مفاجئة، يصنعون شقلباظات ولا يقعون، أحدهم مشى على يديه وهو مشرِّع قدميه للسماء، ابتعد حتى أصبح نقطة رمادية في محيط أسود.

يزداد المطر، يحمم الجدران، بين الشقوق تنام حشرات بليدة لا أعرف لها اسمًا، تغسل الأمطار الحيطان وتعطي للقوالب لونًا يبدو زاهيًا عما هو في الحقيقة.

نقترب من نهاية المشوار، يُنزل أبي الحمل من على كتفه أمام عتبة البيت، يسلِّم الكرتونة برفق من كتفه ليديه، تستقر فوق المصطبة.

يتوقف أبي قبل أن يدفع الباب. يستعد لتدبير مقدمة تليق بشراءِ تليفزيونٍ، تهيج دواماتُ الأبخرةِ من داخلِ البيتِ، تجتاز الباب الرمزي وتصل إلى أنفي رائحة طبيخ استوى وطاب ولا ينتظر إلا الهجوم على الحلة. يخطو أبي مسرعًا وأنا من خلفه، يغمز الباب بطرف حذائه، ينفتح الباب العمولة وتقع الطاقيَّة من على رأسه أثناء العبورِ.

يصل أبي إلى البيت مجهدًا، يتملَّك منه التعب، لا يستطيع هش ذبابة، يتمدد على الكنبة وينام، يغطُّ في سبات بعيد، يبدأ العزف المنفرد، من أحلى نومة كان يوقظني، تُسمِّي أمي شخيره مزيكا، مُنوِّم، أحلى من صوت عبدالوهاب، أمامه كانت تتفنن في إخفاء عيوبه، تجعلها لا تكاد تُرى بالعين المجردة، وفي المقابل تُكبر مزاياه، تجعل كل من هبَّ ودبَّ يراها كإعلان مضيء في ميدان التحرير. أما عن رأيي أنا، لم يكن يستمع إليه أبدًا فما دام هو بصحةٍ جيدة حيًّا يُرزق، لا داعٍ بعد ذلك إلى قول شيءٍ.

14

كان بيتنا فقيرًا وغير أنيق بالمرة ولكنه نظيف. أما عائلتنا، فمتحدّرة من سلالة شريفة، ولكن فقرها دكر ومعدمة، كأنّنا كنّا ننتمي لأسلاف أكثر رُقيًّا في زمن مطمور. غذّت أمي في دماغي فكرة أظن أن بقاياها لاتزال مترسِّبة في قعر مخِّي حتى الآن: «الشرفاء دائمًا فقراء. أما الأغنياء فكلهم أولاد كلاب».

لأسباب لا أعلم معظمها ولا أتحكَّم في مجملها ارتبط مستقبلي بهذه المنطقة، أسكن في بيت على القدِّ، مبني أي كلامٍ، تطل خلفيته على مجرى مصرف ثقيل الشكل والرائحة، على ضفتيه ينمو غاب كثيف بلا حصر، تتشبَّع جذوره من الأبوال وتشتد سيقانه من سماد الغوائط، تتخلَّق حوله حشرات نَمَتْ من تفاعلات معقدة.

تعاملتُ في البداية على أن الموضوع عَرَضي، مرحلة مؤقَّتة، ستمر لحالها بعد عدة مشاهد كما يحدث في أفلام النهايات السعيدة، بدأ وعيي يتشكَّل هنا، في هذا المكان الذي لا هو ريف ولا هو حضر، كائن مشوه تأرجحت مكوناته بين مخلوقات عدَّة، منطقة يسكنها من يلبسون جلاليب وطواقٍ وبُلَغ، وأيضًا من يلبسون قمصانًا وبناطيل جينز

وبنصات، من يُرَبُّون الطيور كالريفيين، ومن يشترونها فقط كأهل المدن، ومنهم من يسرح بالغنم، ومنهم من يسرقها.

كثيرًا كنت أتأمَّل هذا النبت العجيب، الغاب، أتخيَّلنا ننتمي إليه بشكل ما، فَلَهُ جذور صلبة عصيَّة على الخلع وساقه مجوَّفة، أوراقه مترامية وحوافها جارحة. ولكنه بلا فائدة تذكر.

كنتُ أتفرَّج على مياه المصرف وهي تهدر، رأيتُ ولدًا يقفز خلف كرة، خانته كومة المخلفات السابحة، انزلقتْ قدمه وغاص، قبَّ وغطس أكثر من مرّة، قِطع الخراء تطفو من كل اتجاه، تطوقه أكوامُ هيشٍ مبلولة ولها جذور، يختنق الولد، يطفو ويغطس مرات ومرات، تبتعد الكرة، يقاوم، يضرب الماء الأخضر المالح بكفيه، تلاطمه أمواج صغيرة وتهزمه، ينزلق في اتجاه القاع، تبتعد الكرة، تسبح بعيدًا عنه بأمتار، تتوقف كفُّه عن لطم الماء اللزج، يختفي، يرتعش الماء في دائرة بقُطرِ جزعه، دوامات صغيرة بلون أفتح تدور في الحفرة، تخفت الدوامات ويسقط الولد في القاع، يعود الماء بعد قليل إلى سكونه كما كان. بالليل، في نفس اليوم أحلم بأني أنقذتُ الولد في الثانية الأخيرة، قبل أن يُخدِّره الغثيان ويفقد الوعي، أخرجتُه مبلولًا وسلمته لأمه، شكرتني وبدَّلت صراخها بتبسُّم، أعطتني باقةَ وردٍ وكرة كَفَر جديدة، انصرفت، فتحتُ عيني في الصباح وأنا أقول «حاسب.. حاسب» اعتدلتُ على طرف السرير، قرفصت، ذهبت أعاين الدائرة الفارغة التي سقط فيها الولد، لم أجد عندها أي عيال، فقط رأيتُ المياه الزيتية أمامي تلمع لمعة مثيرة، ومقززة.

استقر شكل الغاب في دماغي وتشعب، جذوره ثابتة، قويَّة، يتشبَّع من مجرى الرشاح، وعلى الشطِّ الآخر تعبرنا أسلاك الضغط العالي.

عشتُ هُنا منذ مدَّة لا أعلمها تحديدًا، تقول أمي إن أبي ضاق من العيش في قريتِنا لأسباب جاءت مُشوَّشة في الحكايات. فقرر الهجرة إلى القاهرة دون أي ترتيبات. في البداية، سافر ليستكشف الأمر بمفرده، ترك أمي وقد بان تكوُّر بطنها بأول خلفة، قضت ثلاثة أشهرٍ عند جدَّتي حتى جاء فتحي أخي للنور، وبعد سبوعه مباشرة بدأت أمي تطرح على جدتي أسئلةً كثيرة وتدور في رأسها هواجس لا عد لها. طال استكشاف أبي وانقطعت أخباره، كان يبحث عن خرم إبرة في مصر، اشتغل باليوميَّة مع أنفار المعمار، غسل صحونًا في محل كشري بباب اللوق، كان القطار يفرغ حمولته من الناس أمام المحل، يهجم الزبائن ويتحلَّقون كالنملِ على برواز عسل، وأبي تتخدَّر يده من الطلوع والنزول على حافة الحوض الكبير بأطباقٍ بلاستيك بيضاء لا عدد لها، لو رُصَّت رأسيًا ستصل للقمر، اليومية ثلاثة أضعاف ما كان يتقاضاه من عمله في قريته، ولكن الشغل عشرة أضعاف.

لم تتحمَّل أمي هواجسها، ألحَّت على أمِّها بالذهاب إلى مصر، رفضت جدتي، فمصر واسعة والبحر فيها بلا أخر، لم تمتثل أمِّي للكلام.

في فجر اليوم التالي أجَّرتْ جرارًا زراعيًا، وأعطته يومية خمسة جنيهات، باعت من أجل الحصول عليها غويشة يتيمة كانت في يدها،

كتبت على ورقة عنوان عمّي الميسور المقيم منذ عامين في القاهرة، دسّت الورقة في عبّها؛ لكي تتمكّن من عملية البحث والتقصّي، شارع جمعة الحضري متفرّع من شارع عزت علي، بعد ميدان المطرية بمحطة، علّقت عفشها المقتصد فوق الجرار، جلستْ بمحاذاة السائق وفي حِجرها لفّة صغيرة بها قطعة لحم حمراء متوتّرة. المسافة من القرية للقاهرة يمكن أن تقطعها السيارة المتسكّعة في ساعةٍ ونصف، غير أن أمي وصلت في خمس ساعات، تحجّر ظهرها وفقدت الرؤية السليمة بسبب السناج وغبار الطريق. حطّت حمولتها عند عمي الذي لم يكن يعرف شيئًا عما حدث، فوجئ بأن أخاه في القاهرة منذ ثلاثة أشهر أو يزيد، وهو أخر من يعلم. وبعد أن كان البحث بشخصٍ واحد أصبح باثنين، أمي الشابة وعمي الميسور، ذهبا للأماكن التي يمكن لأبي ارتيادها، وبعد تقصٍّ مرهق وبعد أن كادا يفقدان الأمل، وجدوه يبيت عند واحد بلديّات يقيم على بُعد شارع واحد من سكن عمّي.

دبّر عمي الميسور بعد ذلك بأيام أوضة بمنافعها، كان إيجارها مبلغًا كبيرًا، من أين يأتي أبي بمئتين وخمسين قرشًا كل هلّةِ شهر؟ بالإضافة إلى تعليمات أخرى من صاحب الأوضة لم يتحمَّلْها أبي العصبي، ممنوع دق مسمار بسبب ضعف الجدران، ممنوع استخدام الحمّام إلاّ مرتين في اليوم بسبب طفح الخزّان، ممنوع تصليح باب أو شبّاك دون استئذانه، الشيء الوحيد الذي كان مسموحًا به هو دفع الأجرة في ميعادها. ملّ أبي واشتكى لعمّي الميسور، صاحب البيت يمنعه حتّى من قول كلمة

«يا سلام»، كانت الكلمة تستفزه لسبب مبهم، وكانت هي اللازمة عند أبي، يُريح بها جُمله المرتبكة كلما أراد فاصلًا قصيرًا، وعرف عمي الميسور، فذهب إلى صاحب البيت وأمطره بوابل من «يا سلام يا سلام يا سلام» وشغّل مسجّله الياباني طوال النهار على صوت وردة الجزائريّة:

«يا سلام يا سلام لمّا الأيّام».

وكانت النتيجة الطبيعيّة لمثل هذه الممارسات أن يطردنا صاحب البيت، وقدّم عمّي نُصحه بكل ثقة:

«الحل في بيت مِلك».

لم يُكذّب أبي خبرًا، عاين قطعة أرض مساحتها ثمانون مترًا أو تزيد قليلًا، بجوارها بيتان أو ثلاثة ببناء غير مكتمل وخلفها مصرف. دون أخذ ورد بناها أبي، كان مشتاقًا للاستقرار أكثر من أي وقتٍ آخر. ضرب الطوب بنفسه في ساحة تبعد كيلو متر، ثم نقله بحمار أجّره على أكثر من مئة مرّة، ضرّب مونة الجدران وشيّدها بنفسه، سقّف حجرتين وزاوية صغيرة، ركّب لها ستارة وسمّاها حمّامًا، محّر البيت بالأسمنت ودهنه بالجير. في هذه الأثناء أتم فتحي عامه الأول، تحمله أمي على ذراعها.

وعندما كان أبي يندمج بإخلاصٍ في تمحير جدار من الداخل، طرقت يد ثقيلة باب البيت الجديد المرقّع من خشبٍ وصاج، فتحت أمي فوجدت عسكريًّا يلبس بيريه ويعلّق طبنجة في القايش، يسأل عن اسم أبي كاملًا، ودون تدقيق في الكلامِ، سحب أبي بهدوءٍ حتى سجل مدني المطريّة.

بعد هذه الأحداث بأربع سنواتٍ، أنهى أبي خدمته العسكرية التي خاض فيها الحرب، خرج بعدها ليجد الدنيا تغيَّرت، جدّي طلبة تقلَّصت أرضه واضمحلَّ نفوذه، وقعت أسنانه وأصبح من الممكن لأي شخص عادي أن يرى صلعته، فقد كان يدفنها دائمًا في طاقية بُنيَّة مشغولة من صوف النعاج. عرفت قدماه الطريق إلى بيتنا، كان يشكو لأبي من ضيق المعايش وظُلم إخوته، بصَّموه على كل أرضه ولم يتركوا له فقط إلَّا نصف فدانٍ. دخل جدي بيتنا ليشكو حاله، ولم يخرج منه حتى الآن. يوم جرَّ يومًا وأسبوعًا شدَّ أسبوعًا وسنة في قفا سنة، حتى أصبح وجوده بيننا هو العادي، واحدًا من العائلة بالمعنى الحرفي، يأكل معنا ويشرب ويشم روائح المصرف ليل نهار.

انقسم جدِّي طلبة في خيالي إلى شخصين، شخص عفي وغبي مرَّ عليه زمن بعيد ولا يحضر إلا في الحكايات، وشخص آخر طيب وهادئ ومستكين لا يستطيع الذهاب إلى الحمَّام بمفرده؟ وهو الشخص الذي أعرفه الآن، يجلس أمامي كل صباح، يحاول السيطرة على فكِّه من الرعشة، ولسانه يخرج أثناء السُّعال.

15

يأتي أبي بعد يوم عمل طويل مقطوع النفس مسلوب الحيل، ومجهد العينين، يجر قدميه حتَّى يصل إلى الكنبة، يلهث ولسانه طالع شبرين، يُخرج ورقة مبتلَّة من أثر العرق، يضعها تحت مروحة السقف لتجف.

«إيه دي يا بو فتحي؟».

«دي شهادة تقدير يا عيشه. أنا طلعت العامل المثالي السنة دي على القصر كله».

يرد عليها بفرح طفولي ونصف ابتسامة ترفض أن تغادر ملامحه طوال الحديث.

أنظر إليه بتعجُّب، أسأل نفسي: «ومن يكون ذلك العامل المثالي؟» شخص نمطي لا يجيد أي نوع من أنواع التميز، يحيا حياةً عادية ومكررة ومملة، يستيقظ كل يوم عند أذان الفجر، يتوضأ ويصلي، يفطر بشكل روتيني قليلًا ما يتغير، يخرج قاصدًا محطة الأتوبيس، ينتظر رقمًا واحدًا «52» بشرطتين، يندفس فيه (واقفًا فى الغالب) حتى ميدان التحرير، يتمشى محطتين كاملتين لغاية قصر العيني، يجلس في «السويتش» على كرسي متهالك، إحدى أرجله مُقمَّطة بسلكِ كهربا، يشرب شايًا ويلوك

المضغة حتى يؤذن الظهر، يذهب ليصلي في زاوية خلف دورات المياه، يعـود إلـى موقع عمله مرة أخرى، غرفة صغيرة دهـان حيطانها مبقور من كل الجوانب، وبقايا طعام مركونة فوق حائط الأزرار، على نفس الكرسي المتهالك يجلس مرة أخرى، يسـحب كابلات خطـوط التليفون، يُغيِّرها حسـب أرقامها المكتوبة على لاصق طبِّي؛ (1) المدير (2) رئيس القسـم (3) غرفـة النوباتجيـة.. ينتظر السـاعتين خاملًا حتى ميعـاد الانصراف، وعندمـا تنتهـي مواعيد العمل، يعيد الكَرَّة بشـكلٍ عكسـي. لذا كان لا بد لهم أن يعطوه شهادة العامل المثالي.

كانت في عينيه لمعة قليلًا ما تعرف طريقها إليه، بعد أن جفت شهادة التقديـر، قرأهـا علينا بنبرة مبتهجـة ثم تمدَّد فوق الكنبـة، غيّبه النوم حتى قطعـت يـد أمي استرسـاله من شـخير دائم، أصبـح مع مـرور الوقت هو الموسـيقى التصويرية المعتادة، صوت أَلِفنـاه من كثرة التكرار، يصاحب تحركاتنا بين الغرف، فلا يسـمع أحدنا الآخر بشـكل واضح. تقترب منه أمي بحرص، تمد يدها بعد تردد يظهر دائمًا على ملامحها، أو في رعشـة يدهـا، تهزُّ كتفـه، يصحو نصف مسـتيقظ، عيناه مِحْمرَّتـان ومضطربتان، يسـعل كالمحتضر، يخلع ملابسـه، يأكل، لا ينسى أن يتغرغر بالماء لكي لا يفقد من بقايا الطعام التي في فمه شيئًا. بعد أن تهدأ عصافير بطنه يتوضأ ويصلي، ثم يلعنِّي أنا وأخي فتحي ويعايرنا:

«أنـا اللي بصرف عليكم وطالـع عيني.. أنتم ماتعرفـوش بتاكلوا كام رغيف في اليوم.. سامعني يا حلُوف منك له.. جاتكم الغم..».

وأتركـه يثرثـر، لا أتوقـف كثيـرًا أمـام كلماتـه، أتغاضـى عـن ندائـه بـ«يا حلُّـوف»، تصبـح أذنـاي ليِّنـة، كمصفـاة لا يعلق بها إلا كل خشـن، أتابعـه وهـو يبحث بعد وصلة السـب عن شـيء يسلِّيه، يحـاول تصليح الخلاط فيفسـده أكثر، يقص أظافره بمقص تنظيف السـمك، يُسلِّك بيبة الحمَّام، ثم أسمع شخيره بعد خمس دقائق يشق طريقه للعنان.

تتظاهـر أمِّـي بأنَّها فرحانة، تمسـك بشـهادة العامل المثالـي، تحاول قراءتهـا ثم تضعها في ظـرف أبيض وتبلل الجزء اللاصـق بلعابها، تُغلقه وتدسَّه تحت مرتبة الكنبة، تقول:

«عقبال الشهادة الكبيرة».

دائمًـا كنـت أحـاول أن أفهـم أمِّـي، ودائمًـا كنت أفشـل، فـلا أدري لمـاذا، رغـم انتزاعنـا للقمة يومًـا فَيَوْمًـا، لا ينال ذلـك أبدًا مـن كبريائها ولا حضورهـا ورجاحة تصرفاتها، كانت تبحث في كومة البؤس عن مُتع خفيَّة، ولا أعرف حتى الآن هل كانت من أصل ميسور، أم أنَّها فقيرة بنت فقراء؟ ولو كانت الأولى فلماذا تتحمَّل العيشـة مع أبي، ولو كانت الثانية فلماذا لم تبحث عن حياة أفضل؟ سألتها مرَّة عن أسباب فقرنا، قالت:

«كل واحد بيحصَّل نصيبه».

كانت مثل هذه الردود تبلِّد إحساسـي وتضبب رؤيتي، ولكنها تفسح الطريق أمامي لتأمل معنى الكلمات.

16

منـذ زمـن لا أتذكر بدايتـه، يعيش معنا جـدي طلبة، مـات كل إخوته وتبقَّـى هـو وحده وأصبـح من نصيبنـا، يأكل معنـا ويشـرب، بالليل ينام ويشـخِّر وبالنهار يسـخر مـن خلق الله، ومن نفسـه أحيانًا، عند سـاعاتِ العصـاري يغني المواويل على أنغام ناي صنعه بنفسـه من أعوادِ الغاب، وكلما ضاع الناي أو كُسِر صنع غيره بسهولة، كان يشذب من العود ثلاث عُقل يختارها من آخر العود، يثقبها بطرف سكين، ثم يُنعِّم الثقوب بمبرد ذيـل فأر صغيـر يحتفظ بـه دائمًا لهذا الغرض. أسـمعه وهو ينشـد كلامًا منظومًـا ومُقفًّـى، كلماتـه حزينة أحـب سـماعها، تخـرج مُنغّمة بصوت مبحوح فيه حشرجة بغير تنشيز، طبقة صوته تستطيع رغم تخطي الثمانين القدرة على الشجن.

«اللي بدر الأجاويد خفف بدارهم

واللي بدر الأندال كان كفُّه سايب

الأجاويد زي الزرع ينضموا على الندى

والأندال زي الشوك يبجوا في الكعايب

يااللي بدرت الأجاويد ياما نلت فايدة

كما لو زرت نهر مليان وفايض

وياللي بدرت الأندال ولا نلت فايدة

كما لو زرت أموات في حوض الترايب»

خلف البيت يتجمَّع التراب ويصنع حُفرًا صغيرة، أخاديد متعرجة تلمع فيها حبات المطر، نقر يخف ويقوى. تصبّ الأخاديد محتواها في مجرى المصرف، تسقط المياه في فوهة بوت بلاستيك ينتعله جدي، تثقل رِجله. يوازن قدميه بصعوبة، مجرد المشي أصبح يُشكِّل خطرًا عليه، يخلع نعله ويُفرغه من الماء ثم يلبسه مرة أخرى. يخف سقوط المطر شيئًا فشيئًا، توقفت السماء عن إرسال جندها، في الشتاء تغيب الشمس طويلًا، وجدي يحتاجها هذه الأيام أكثر من أي وقتٍ مضى، ليس للدفءِ فقط، ولكن بسبب تنقيبه الدائم وجسّ القمامة في أوقاتِ فراغه الطويلة. أصيب بحكةٍ دائمة في مؤخرته وأعلى فخذيه، نصحته أمِّي بتعريض الأماكن المصابة لأشعةِ الشمسِ ساعتين على الأقل كل يوم، فاخترع لنفسه شمَّاسة من ستارة قديمة منحولة النسيج، صنع إطارها الخشبي من بقايا حلق باب قديم، ثم مَسْمَر فيه ستارة ثقوبها لا تحصى، كان يخلع عنه لباسه كل صباحٍ، يشدُّني من يدي لأصعدَ معه فوق السطح، يدخل في الشمَّاسة ويشلّح جلبابه، يُعرِّض الأماكن المصابة لأشعةِ الشمس، يستند بكوعه إلى سورِ السطحِ القصير ويشرد، كنتُ أجلس بالقرب منه تحت

الطلب، أتابع الأجواء وأنا سارحٌ في ملكوتي الخاص، وضعتُ له سلمًا خشبيًا مقرطمًا، سنصعد بعد قليل وننتظرُ طلوعَ الشمس.

رأيتُ أمِّي في طريقنا، وهي تهتم بشيء آخر تمامًا.

تجلس وأمامها أربعة قوالبِ طوبٍ، ترقد بينها علبة صفيح كبيرة وتحت العلبة لهب، تدس باستمرار خشبًا ونشارة وأكداسًا من المخلفات بجوارها، قطع كراتين وورقًا مكورًا، يخرج الدخان ويلفها كعفريت خرج لتوه من قمقم، تمسح عينيها المدمعتين كل دقيقة بطرف طرحتها، تقبض يدها على عصا جريد، في مقدمتها مسمار كبير معقوف كخُطَّاف، تغمس العصا في الصفيحة، يخرج المسمار مرشوقًا في أذن بقرة، يتدلى من طرفها قرط بلاستيك ملون، على حجر أمامها تجردها بسكين له يد مخلخلة. تُخلّصها من شعرها وقرطها ثم تضعها في صفيحة أخرى للشطف، تخرجها نظيفة ثم تقطعها جزلًا. بجوارها كانون آخر، لم تشعل من تحته النار، تجهّزه بوقوده في حالة تأهب للاشتعال، من فوقه ترقد حلة كبيرة فيها تقليّة باردة، تفوح منها رائحة الشطة الحرّاقة والفلفل الأسود وعصارة البصل.

بعد أن طبخت لنا أمِّي آذان بهائم، شربنا أنا وجدِّي طلبة المرقة وبقيت المنابات، ستُفرِّقها أمي بعد قليل، أول ما رأتنا نتجه نحو السطح قالت بصوت عالٍ:

«القراقيش يابا طُلبة، نُص ساعة بالكتير وتكون جاهزة».

في قرص المنضدة دق أبي أمام أزرار التليفزيون خشبة في حجم مسطرة، كمانع للعبث في مفاتيحه، كان يلتزم بكل حرف، قاله له الكهربائي: «التليفزيون الـ 14 بوصة، شارب ياباني من اللي مات أبوه، وأغلى حاجة فيه الزراير»، ألقى أبي عليه ستارة قديمة، حجبه كله إلا شاشته الصغيرة، التليفزيون له زراير كثيرة ويمكنه استقبال بث تسع قنوات في المستقبَل.

قال أبي موجّهًا كلامه لأمي وهو مندمج في تعديل وضع التليفزيون:

«من بكرة الصبح تفصَّلي له كسوة مخصوص».

ثم يندمج في تشغيل الجهاز. يوصّل «جاك» ينتهي بمشبكين، واحد أزرق والثاني أحمر، وبجوار قدميه بطاريّة رابضة، ناشعة بالملح مضعضعة الزوايا، لها أصبعان من الزهر، ناتئان عن سطحها، يضع أبي المشبكين في الحلمتين فيحدث شرز خفيف، تتضح الصورة ويتسلل الصوت لآذاننا.

يقف جدي طلبة وعيناه ثابتتان على عفاريت الشاشة، الذين يتحركون بشكل أنشط منا، يسمع أصواتًا مختلفة عن أصواتنا، بنات إعلانات حلوات يملأن الشاشة، مسبسبات الشعر، لهن أسنان حليبية وطلّة حسناء، متبسّمات في وجوه المشاهدين بشكل دائم. ينسى جدي هرشه في مؤخرته، وينسى طريق صعود السقف لاستجداء أشعة الشمس الشحيحة، ينظر لكائنات الشاشة وهو يضع عود قش بين أسنانه. يعود

المطر من جديد، تسقط من بين عروق التعريشة قطرتان فوق التليفزيون، تتضح الصورة وتتحدد معالمها، يُنشّف أبي الماء بِكُم جلبابه، يضيّق جدّي طلبة عينيه محاولًا استيعاب الكائنات النظيفة الوافدة على بيتنا.

تُنشّف أمّي كفيها في جلبابها، تخرج لتملّي عينيها من المخلوقات المسخوطة المستجدَّة، وتضيف تعليقًا إلى التعليقات الأخرى التي انطلقت عندما أضاءت الشاشة الصغيرة:

«يا حلاوة».

«البطارية حتكفيه قد إيه؟».

«عايزين حصيرة وشاي».

يجيء فتحي وهو يضع أوراق الملخَّصات تحت إبطه، يجلس على الكنبة، يتسمَّر دون أن يلقي التحيَّة، يقول كلمة واحدة بصيغة سؤال:

«تليفزيون؟».

ننشغل جميعًا في الصندوق المضيء، تلفّ أمي حول أنس بطانية صغيرة، تبرمه بها جيدًا، تتأكّد من عدم وصول مياه المطر لأطرافها. يتحرك جدي طلبة خطوة للأمام، وعنقه ملفوت للخلف، أمام السلّم الخشبي أمسكت أنا الشمَّاسة الساتان، تقدّم جدي وهو يبحث عن درجة السلم الأولى. في الآونة الأخيرة، خف وزنه وثقلت حركته، كان جذعه يسبقه للأمام وتعطّله مؤخرته في الخلف، قدماه حائرتان في التوفيق بين الفعلين. نصعد بتأنٍ في مدة طويلة لا تناسب المسافة، يسبقني بخطوة،

وأنا أسنده بما أملك من جهد، وصلنا للسطح ولكن الشمس لم تصل، ولا حتى سلخة من شعاع توحّد ربنا.

يدخل جدي طلبة في الشمّاسة ويشلح جلبابه حتى بطنه، شبهة شمس صفّرت الكراكيب المتكوّمة فوق السطح، بدأت الأشعة تستجيب لمؤخرته، انساب الدفء رقيقًا فانفكّت تقطيبة جدي، وقفت بجواره أعدّل من وضعية شمّاسته، وأنتظر.

17

المشهد من أعلى أفضل رغم البرد، تتجوَّل غنمات قليلة وترعى حول البيوت المتلاصقة، تمضغ ما تيسر من الورق، تُخلّصه من المياه التي غطت كل شيء، تحاول الوصول إلى العشب الأصفر الطالع وفي شواشي أعواد الغاب المائلة، تخرج أبواز القطيع مختومة بالأوحال.

جدي طلبة لايزال ينتظر عطف السماء، أشعة الشمس شحيحة، يقف شاردًا في دنيا غير الدنيا. منذ أيام استيقظتُ على صوته وهو يصرخ، ألم شديد لم يحتمله، خرجت آهاته واهنة ومذيلة بجُمل التوسل، أيقظتُ أبي، فوجد جدي يغط، فرك عينه بقبضته وطرقع أصابعه وتأملني جيدًا، وقف كالتائه، انقطع الصوت وغاب التوسل، ربما كانت أصوات أحد الذين قضوا في قاع المصرف؟ أو مشاجرة عادية عند استلام قِدرة فول من المستوقد القريب. كان صوتًا يشبه الاستغاثة، استعاذ أبي من الشيطان وذهب ليكمل نومه، وقت قليل مر وبدأ نفس الصوت يشق السكون، استيقظنا جميعًا، رأيتُ جدي طلبة يعصر جنبه، يخرج التوجّع منه بطيئًا، سرعان ما علا صراخه، صنع مجرى المصرف صدى صوت مخيفًا واهتزّت أعواد الغاب، استيقظ أبي مرة أخرى وهو يهرش بين

فخذيه، يستوعب ويربط الأحداث في مخيلته ببطء، جاءت أمي وهي تحمل مسندًا تُريح عليه جذع جدي، يتكرر الألم والتوجع، يحمله أبي على ظهره كما كنا أنا وفتحي نلعب ونحن صغار. لم تكن هناك وسيلة نقل تسير في هذا الوقت المبكر إلا عربة يد صغيرة، كان صاحبها يتسلّم قدرته من المستوقد. بعد جهد كلامي، اقتنع الرجل بتنزيل قدرة الفول ووضع جدي طلبة مكانها على كومة القش.

أفقتُ ولا أدري في أى دنيا أنا، أنس نائم على كرسيه ورأسه مغطى بشال أبيض، وفتحي يغط مثل أبي عند نعسانه في نوم ثقيل مطمئن. أقف خلف البيت وحدي بلا وعي كامل، أتأمّل المجرى الذي يعبر البيوت كثعبان أسود، يمتد طوله على مدد الشوف، تحرسه أعواد الغاب من الجانبين. البيوت تبدو غير مقنعة، كشيء افتراضي لم يحدث بعد، أو كفكرة جهنّمية تجوّلت مرارًا في دماغ مجنون. ظلال الغاب على سطح المصرف الجاري كئيبة، والمياه المخضرّة أمواجها قابضة وهديرها يدور بالدماغ، عانق الواقعي الخيالي فأصبح التمييز بينهما مستحيلًا، شق شبح أبيض السائل اللزج وأعطاني ظهره ثم وقف يتبول، كان أطول من حائط، عرضه كبير وشفاف وسُمكه بلا أبعاد، دون مقدمات أو تبرير لسبب مجيئه، اختفى مرة أخرى بعد أن قفز فى الرشاح، بُقّعَتْ ملابسي بمياه المصرف، نباح الكلاب موسيقى تصويرية للمشهد. تخدّرت أوصالي وأحسست برغبة في القفز خلف ما رأيته يغوص فى مجري المصرف المظلم، سِرتُ في اتجاه المصرف وأصبح بيني وبين المياه

الهادرة خطوة واحدة، التفتُّ خلفى عندما سمعت صوت مناغاة، نقيق ضعيف، رأيتُ ابتسامته تحمل معانى كثيرة في تعبير واحد، أنس. أحمل أخي الكبير، أقبّله وأحبُك حول خصره الصغير اللفة البفتة، وأسأله:

«شُفته؟».

لم يحرك شفتيه، ولو حتى رمزيًا، يبتسم في براءة، ذاب كل ما ترسب من خباثة في قعر دماغي بسبب الرائحة، ورغم ذلك كنت أصر على استجوابه:

«شفته يا أنس صح.. شفت الشبح؟».

نطقتُ أمامه كلمة شبح، لم يتأثر بها، لا يزال يبتسم، وكأني أقول له «عصفور» أو «كتكوت». أحيانًا كنت أحسد أنس على وقوفه خارج دائرة الأحداث، فما يمر علينا لا يشغله، وكل ما يخيفنا ونعمل له ألف حساب يتساوى عنده مع ما يبهجنا. نظرته لا تستدر التعاطف بقدر ما تعطي قدرة كبيرة على التأمل.

يومها تأخر جدي وأبي حتى بعد الفجر بقليل، عندما شق النور القبّة المظلمة وبدأتُ أرى مجرى المصرف يتشكّل، تبدلت صور الأشباح بجامعي القمامة، طلّت وجوههم عليّ من بين كثافة الغاب، كأنهم قبُوا من بين الأمواج، أو سقطوا من السماء.

18

تعلّمتُ من جدي طلبة تأمل الناس كثيرًا، والأشياء أيضًا، كان يصنع من المخلفات أشياء مفيدة، تُسميها أمي «مخترعات» أبوابًا وكوالين وسنارات صيد، هوايات عجيبة يُسلّي بها نفسه ويُنفق وقته، كان يقيس عمق المصرف بغابة، يعشّقها في أخرى ثم يربطها بدوبارة، قال لي يومًا إن عمقه أربعة أمتار ونصف، لكن فيم تفيد هذه المعلومة؟! عرفت فيما بعد أنه يريد أن يصنع عكازين خشبيين، يعبر بهما إلى الضفّة الأخرى، باءت الفكرة بالفشل؛ بسبب عدم وجود مركز ثابت يسند إليه العكازين، لكنه لم ييأس، صنع مرتكزًا من خمسة أصابع يشبهون اليد، وسنّادة لقدمه على ارتفاع أربعة أمتار ونصف المتر، توقّف اختراعه مرّة أخرى بسبب ضعف العود الخشبي الرئيسي، الذي لم يتحمّل الثبات لكل هذا الارتفاع. سألني جدي ذات مرّة سؤالًا لم أعرف له إجابة وقت طَرْحه:

«ليه الخلخال النحاس بيغرق والطشت النحاس بيعوم؟».

يدور عالم من الأفكار بشكل دائم في خياله، يسرح كثيرًا في دنيا الله الواسعة، اخترع ذات يوم شيئًا مفيدًا، لايزال يستخدمه حتى الآن، «كالون» خشبيًّا برقّاس، صنعه بمقاييس دقيقة في صبر يُحسد عليه، قدَّ

لـه إصبعًا من الكربـون كان عمودًا فـي حجر قلم، نعَّم استدارته بموس حلاقـة، وربـط فـي الإصبع مسـمارًا معقوفًا وعلـق فيه حبل تيـل، ركَّب علـى الحبـل بكرة كانـت مروحة غسـالة، ليَّن الحبـل بالشـبَّة والصابون حتـى أصبح يسـتجيب عند أقل لمسـة، ثم ركّب الكالون فـي باب البيت الصاج وجعل طرف الحبل فوق السـطح بشـكل دائـم، بذلك كان جدي طلبة يشـرب الشاي أو يعفر سيجارة وهو متسـلطن، وعندما يقرع ضيف البـاب، يجذب جدي الفتلة من فوق، فيفتح الكالون من تحت، أما لو لم يرغـب فى دخـول الضيف فلا يهتم، يجلس بعيدًا عند منتصف السـطح، حتى لا يراه الطارق غير المرغوب فيه فينصرف.

وكان جدي دائم القول:

«فـى بلدنا دي مبيصنعوش حاجة لحاجـة معيّنة. بيصنعوا حاجة تنفع لكل حاجة. وبكده يبقى مبيصنعوش حاجة».

يُنـزل جدي جلبابه ويخرج من الشمَّاسـة، يمشـي في اتجـاه النزول، أمشـي خلفه، فقـد عاودت السـماء إرسـال جندها من جديـد، تقاطعت أحبال الأمطار المتصلة، أصبح من الصعوبة رؤية السـماء، يتوقّف جدي عند أول درجة من السلم الخشبي، ينتظرني حتى آخذ بيده.

عنـد آخـر درجة مـن السـلّم كان عـدد المقرفصيـن أمـام التليفزيون الصغيـر قد ازداد بشـكل ملحوظ، أشـخاص أعرفهم وأشـخاص أراهم للمرّة الأولى، أنظارهم مشـدودة في اتجاه الصور المتحرّكة، حتّى أنس، كان على كرسـيه وبجواره تجلس أمي على دلو مقلوب، تلعب في شعره

الناعم وهي تتأمل المعارك الدائرة أمامها على الشاشة، ملّ أبي من مسح قطرات المطـر السـاقطة بكمّه، فـدسَّ في مـكان التنقيط لفّـة قش كانت تُغلـق فوّهـة زلعة جبنة قديمة، توقفت القطـرات فأعطى ذلك فرصة أكثر لمتابعـة الأحداث، المعارك على الشاشـة لم تضـع أوزارها بعد، دبّابات تختلط بخيول وجنـرالات يحاربون أعرابًا، انتبه جدّي، انضممنا للجمع المقرفص أمام التليفزيون، أصبحنا في ثوانٍ من نسـيج جمهور كبير يكتم أنفاسه لمزيد من رهافة المتابعة:

«فيلم إيه ده؟».

سألت «فتحى»، فقال دون أن يعيرني أي التفاتة:

«عمر المختار. العرض الأوّل. سيبني أتفرج بقى».

وقبـل مشـهد إعـدام المختـار بقليـل، وتحديـدًا عندمـا طلـب مـاء للوضوء، اضيقّت الشاشـة فجـأة، أصبحت في حجم الكف، واشـرأبّت رؤوس الجمهور ليتمكّنوا من رؤية كائنات لا يتوقّف انسخاطها، الصورة تتقلّـص، أصبحـت أصغر من الكف، ثـم انطفأت تمامًا، هـاج الجمهور وبدأت ألسنتهم التي كانت خامدة تطرح الأسئلة:

«قربوا يعدموه».

«السلك اتهز».

وهُنا وقف جدي طلبة، فرد عوده وقال بصوت علا على الجميع:

«البطّاريّة عايزة تتشحن».

19

فـى ميعاد الغسـيل تسـحب أمـي مـن تحتـي الملاءة،كنـتُ أغط في نوم لذيذ، بنتشـة عفية تحصل على طلبها بسـرعة، تلح علـى أبي أن يُغيّر جلبابه القصيـر، الذي يتميز بطعنة طولية على فخذه، ويرفض أن يخلعه، أو بالأدق كسّل:

«يا وليّة انتِ ماوراكيش غيري؟شوفي لك شغلانة تانية يا عيشه».

يقـول لها، ثم يسـألني عـن أخبار درجاتي هذا الشـهر في المدرسـة، أتظاهـر بأنـي مزنوق، لا بـد أن أدخل الحمَّـام حالًا، تلملـم أمي الفرش وترميه في برميل بلاستيك يستخدم لجمع الملابس المتسخة، ثم تنشغل فـي ترتيب المـلاءات وكنـس الأرض المنبعجـة وطلـوع المخدات في الشمس، ظلت تعمل باندماج وإخلاص حتى بعد الظهر بقليل.

خرجتُ من الحمام متكاسـلًا، أخشى أن يسـألني أبي مرة أخرى عن درجاتـي فـي امتحانات الشـهر. تركته ووزنـت الأجواء بالخـارج، عيال تجـري، تتسـابق على شـط المصـرف، يزقّون عربة الكسـح؛ حتـى تتوه عـن الأنظار. لا جديـد، رائحة المصرف المعتادة وقطط تقفز من سـطح إلى آخر.

بعد قليل، يأتي جار أعرف ملامحه ولا أعرف اسمه، نحيف وله عنق طويل أحمر ورأس صغير كالديك الرومي، أنفه حاد وفمه مزرور، يدخل مُنكّس الرأس محتقن الملامح، يجلس بجوار أبي وأثر النعاس بادٍ على ملامحه، الرجل يلبس جلبابًا قصيرًا من الخلف بشكل ملحوظ، يرفعه ظهره المحدودب، وأبي يلبس جلبابًا ممزوعًا قرابة شبر عند أعلى فخذه، يجذب الجار جلبابه لأسفل، يُقرِّب فمه من أذن أبي يفحّ إليه بكلمات مشوّشة، لم أستطع فك طلاسمها، يترك أبي القطع في ثوبه يُظهر مساحة كبيرة من شعر فخذه، يضرب كفًّا بأخرى ويقول:

«بتقول إيه؟».

يصمت الجار، ويُكمل أبي الجملة:

«جايين يهدّوا البيوت بالبلدوزرات دلوقتي؟».

ويطمئنه الجار الذي بدا خبيرًا بكل ما يحدث:

«هُمّا لسّه عند الشط التاني».

ينصرف جارنا الذي لا أعرف اسمه، قبل أن تُدبّر له أمي تلقيمة شاي من الجيران، يخرج بسرعة، لا يريد أن يوجه له أحد أسئلة إضافيّة، فور انصرافه أسمع طراطيش كلام يدور في الأجواء، وكأنّه نما من تلقاء نفسه دون قائل:

«البلدوزرات قرّبتْ».

نرتطم بعضنا ببعض، نتخبّط جميعًا في حيطان بيتنا المبني على وشّ الأرض بعد سماع الخبر. الوحيد الذي لم يتأثر هو أخي أنس، يجلس كما هو على الكرسي المتحرك الذي لا يتحرّك، يوزّع نظراته البريئة على كل من يمر، يبتسم برقّة ويُروّح بلا اتزان كفّه الطالعة منه خمسة أصابع نحيفة كأعواد ثقاب.

أسمع أصواتًا عالية تنتهك سرحاني، كأنها تخرج من الحيطان، لم تكن خناقة، فالخناقات في عزبة العقاد لها طرق محفوظة، تبدأ بصوت جاهر وكأنه حديث حار من القلب، ثم تتطور إلى مشادة، يستمر فيها فقط القادر على الاحتفاظ بقوة أحباله الصوتية لأخر التصعيد، لكن ما سمعته كان صراخًا يعلو وكأن مصيبة على وشك الحدوث، يلف حول البيوت عيال يقفزون من شط المصرف إلى الشط الآخر، الجلبة غريبة هذه المرة، مختلفة تمامًا عن هيصة الفرجة على عربة الكسح، كان صياحًا يعلو دون تدرّج، أوانٍ تصطك وأنصاف عبارات، مع التركيز يتميّز الكلام:

«خَرَّجوا الناس الأول».

«حيهدّوا البيوت».

«وسّع يا بني آدم».

«أبو الحكومة».

يخرج أبي بالجلابية القصيرة المقطوعة عند أعلى فخذه، يشرئب عنقه وهو يستكشف ما يحدث بالخارج، يثبت على وضعه كتمثال شمع،

أُسرع وأقف إلى جواره، أستمع للجلبة، يشوّش صراخ العيال على ما يصل من كلمات، ستارة غبار تحجب الرؤية، أسمع صوت بلدوزر قادم، صرير عجلاته وزحف جرَّافته يزداد وضوحًا، يُسهِّل استيعابي لحقيقة ما يدور على الأرض، يقترب المارد الحديدي ومن حوله عساكر تجري في كل اتجاه، كحشرات أفزعها المبيد، فرقة منهم تجري، ومن خلفهم كلاب في أحجام جحوش وجسارة ضوارٍ، يُقوّض فمها المتحفز للانقضاض لجام مُدعّم بأسلاك، وأمام البلدوزر ضباط يهشّون الهوام وغبار الجير عن ملابسهم المهندمة، يلبسون نظارات شمس كبيرة تبتلع وجوههم، يمشون بخطى بطيئة ويرفعون رؤوسهم أكثر مما يجب.

يزيد عدد البلدوزرات، أراها ثلاثة أو أكثر، في أعقابها هيصة وعويل يصدر من جميع الاتجاهات، يسبقها غبار كثيف ويتقدمها عساكر بهروات ودروع يهرولون في اتجاهنا، يُخرجون الناس من البيوت، أو العشش، كما يردد سائقو البلدوزرات. كانوا حريصين على إخلاء المساكن بسرعة، لا يهم عفش أو مقتنيات، الأوامر عندهم الحفاظ على أرواح الناس، فقط الأرواح، تتداخل الأصوات ويستحيل تمييزها «يا هووووه.. أبو الحكومة.. العيشة.. اللي عايشينها.. الله يخرب بيت.. يلعن دين..»

وأبي يجري أمامي فاقد الكرامة والهيبة، والهراوات الميري تطرق على مؤخرته..

«امشي يا ابن الكلب.. بسرعة يا ابن الكلب.. خد معاك ولاد الكلاب دول».

ويمشي أبي صاغرًا، لا يشفع له أنه خاض الحرب، يبرطم، تزداد الشتائم قسوة، وجدّي طلبة يقوم ويقعد كمن أصاب دماغه خللًا، تضطرب عيناه ولا تقويان على الرؤية، يرفع فوقها كفًّا مجهدة ترتعش، يحاول الاستيعاب بحواس مستهلكة تعودت أن تتعامل ببطء مع مختلف الأمور، يجري بجسد استصعب المشي منذ ساعة، كان يعافر من أجل البقاء، يحمل عكازًا يتخاذل هو الآخر ولا يقوم بمهمته. يحاول استيعاب المشهد ويفشل، فلا بقايا صحة تُحركه، ولا شخص «فاضي» يسحبه، لم تشفع له صورته مع الرئيس جمال عبد الناصر، ركض في مكانه، لا تساعده خطوته الضيقة على اجتياز المدخل والخروج للبراح، تطاله لسعة هراوة وشتمة فوق البيعة، من شدة الارتباك يجري في اتجاه الدخول إلى البيت.

كانت أمي أنشط منّا جميعًا، أول أهدافها أخي أنس، تسحب الكرسي المتعثرة عجلاته في الطين، مرة تدفعه للأمام ومرة تجرّه للخلف، تتنفس بارتياح عندما تُخرجه بكرسيه قبل أول قطعة عفش، ثم تطلق صرخة حادة وهي واقفة بجوار الكرسي:

«القطة.. قطة أنس»

لا تنتظر مساعدة من أحد، تركض للداخل، لا تهتم بـ«الصويت» وشق الهدوم، ولا بإطارات البلدوزر الثقال الهاجمة بلا تمييز.

«استني يا عيشه».

يقـول أبـي. تخرج أمي بعـد قليل، وهـي تحمل على ذراعهـا الكائن الصغيـر الـذي ينتفض مردومًـا بالغبار، تقفـز القطة بجوار كرسـي أنس. تربض باستكانة وهي تنفض عن أذنيها الجير والتراب.

تبـدأ أمي بهمّة نقل كل ما تسـتطيع للخارج، طبلية بأكلها، شـماعات ترتـدي ملابسـنا، كنبـة مقلوبة ومعبـأة بمواعيـن، مرتبة، ضلفـة دولاب مفصلاتها مقطومة يشـبك فيها أسـتك وتجر خلفها لباس جدي الدمُّور، تلطـم الضلفـة وجهـي، تأخذ في سِكّتها نصف سِـنَّتي الأماميّـة، يدخل إلى فمي غبار كثيف لا أسـتطيع منعه. متعلقاتنا تُسـحل، يرميها العسـاكر ويدوس عليهـا الناس، وأبي يجلس كالصنم فوق مصطبة دكان الأطرش المواجهة للبيت الذي يتم إخلاؤه بسرعة.

جـدي طلبة لا يزال بالداخـل، أجري، أركل باب البيت وأقفز، هدفي الوحيد هو إخراجه، سـحبته من جلبابه سريعًا، كان بجوار السرير يحمل بروازًا تحت إبطه، خطوته بطيئة في وقت لا يحتمل بطئًا، لا نرى بوضوح، شبورة الغبار تخنقنا:

«بسرعة يا جدي».

قلت له.

«ماحدش بيموت ناقص عمر».

ردَّ عليّ.

سائق البلدوزر لا يتفاهم، وشوكة الوحش الحديدي تقترب من بيت جارنا الذي لا أعرف اسـمه، تغوص في الجدران السويسـي المبنية على وش الأرض، لا تجـد أدنـى صعوبة في اقتلاعها. يخـرج الجيران فارين على وضعهم كما هم، من يأكل خرج وفي فمه لقمة، ومن تغسل خرجت مشـمّرة ورغـاوي الصابون تغطـي يديها حتى الكوعيـن، ومن يلعب من الأطفـال يجـري وهـو يحمل البلـي أو النحلـة أو غُطْيان الـكازوز. أحد الجيـران وقف بيننا متدثّرًا بسـتارة خشـنة منهكة الـورود ومزيّنة، نطَّ من الطسـت أثناء استحمامه، نتش أي نسيج أمامه وتلفّع به. وآخر لم يخرج إلا بعد أن لطمه عسـكري عفيّ بكعـب بندقيته، فتكوَّنت زهرة دم صغيرة على جنب فمه المزموم.

يتوقـف «بوكس» وينزل منه رجال يلبسـون بـدلًا نظيفة، وتلمع على أكتافهم رتب نحاسيّة على شكل طائر.

يمسك أحدهم بمكبر صوت:

«أي بني آدم خايف على عمره يخرج برّه حالًا. مش هَكرَّر تاني».

يقولها باستهتار شديد، كمن يُبلّغ أبناءه أن لو أحدًا سأل عليه فليقولوا له راح مشـوار، يُنزل مكبر الصوت عن فمه، يرميه لعسـكري ينط بجواره كأنّـه يدوس على صفيح سـاخن، تنتفـض هراوته بين يديـه، يلقف مكبر الصوت ثم يقف خلف الضابط الكبير.

أخـرج وأنا أرتجف، أحاول إنقاذ ما يمكـن إنقاذه مع أمي، ألقي بكل مـا تطوله يدي للخارج، قروانة، ضلفة دولاب، طبلية، أحذية، انكسـرت

زلعة جبنة قديمة وتناثرت أشلاؤها المُشرّبة بالمش، تخرج رائحتها الفوّاحة عن السيطرة، يقع برميل الغسيل المتسخ، تندلق منه الهدوم وتُسحل تحت أقدام غليظة، كيوم قيامة مُصغّر.

«إنتو ظلمة وكفرة».

يقول أبي موجهًا كلماته لأصحاب النجوم اللامعة والنسور النائمة والسيوف المتقاطعة.

«يالّا يا راجل يا بن الكلب. لِم كراكيبك وهلاهيلك وامشي من سكات».

يرد أحد لابسي الميري وهو يشير بعصاه في الاتجاه المعاكس لموقع البيوت.

وضحت الرؤية أكثر عندما طوقوا صف البيوت، أمام الموكب يقترب ثلاثة عساكر، كل واحد يمسك في قبضته جنزيرًا، ملفوف بين حلقاته حبل كتّان، الحبل معلق في عنق كلب، والكلب أسود في حجم نمر، يتقدمه لجام يُقوّض فمه، عيناه شبقتان وشقوق لسانه الحمراء تظهر من بين سيور اللجام. يتبع العساكر الثلاثة بلدوزرات ثلاثة، كل بلدوزر يقوده رجل جهيم، تقفز على ظهره كتيبة عساكر وتلف من حوله كتيبة أخرى. بجوار العساكر يقف ضابط كبير تبرق نجومه الكثيرة في الشمس، وأسفل النجوم طبنجة.

في لحظة هاجمة ومباغتة، تنطلق البلدوزرات ومن حولها كائنات فزعة، يوحي المشهد بأنهم مقبلون على حرب، غبار البيادات أفقدني الرؤية لثوانٍ، وإطارات البلدوزرات العالية تسحق كل ما يقابلها. في نفس اللحظة، أماط العساكر اللجام عن وجوه الكلاب، فانطلقت هائجة، لسانها طالع شبرين، يلحس كعبي، تشبّ مخالبها، تحاول هبش ملابسنا فنركض، وإلى البعيد نهرب، نترك العفش والمتعلقات، بل نترك بعضنا بعضًا، تفلت يدي من يد جدي ويقع، أحاول سحبه، ثم أتركه، ثم أحاول مرة أخرى. يحتفظ العسكري بمسافة آمنة بين فم الكلب والهدف، حوالي متر فقط، خطوة بين أنياب الكلاب وملابس الهاربين، ألتفت في كل قفزة لقياس المسافة بين الوحش الضاري وطرف حذائي.

خرجنا في ذلك الصباح مذعورين، هلعين، كحشرات ضلت طريق الجحور، هاج الفروج وذُعر البط، فزعت الأطفال وتهاوت الجدران، جلبة لا يمكن وصفها بدقة؛ فالجميع في حركة مستمرة تستعصي على المتابعة، حتى عفشنا المتهالك تمرّد علينا، وكأن الأشياء تلبّستها فجأة أرواح خائنة وأبت ألّا تطاوعنا، فُسخت ضلفتا الدولاب وتحول إلى كومة من الخشب، فرشت مدخل البيت الضيق، تعلق حرف المرتبة في سِن جَنْش مدلى من السقف؛ فتناثر قطنها المفتت وملأ أنفي غباره العطن، اشتبكت حواف الحُصر مع طين الأرض، رفضتْ أن تُبرم وتطيعني.

نهرول للخارج دون مداسات، أمي تحمل كل ما تستطيع، وأبي تبان فخذه من الطعنة المميزة لجلبابه القصير اثناء الركض، يجري فتحي

أمامنا وهو يرتدي فانلة عليها شعار نادي الترسانة، وبنطلون بيجامة أحمر مقلم وشبشب بصباع.

غبار خشن كثيف يحشو أنوفنا ويلبد فروات رؤوسنا. نُكوّم بسرعة ما تبقى من أشيائنا، صندوق كوكاكولا أحمر دون زجاجات، فرو خروف، حمّالة زير، زعّافة، شمسيّة يدها مكسورة، مخترعات جدي، الكالون أبو حبل، المرجيحة الجريد. دخلت الكراكيب في عناق، حالة عشق حميميّة جعلتها تفني بعضها بعضًا.

يسبُّ النـاس من حولـي بكل أنـواع الشـتائم. والبلدوزر مـاضٍ في مهمـة واحدة لا يحيـد عنها، هدم بيوتنا، أو العشـش كما يقول العسـاكر والباشـوات لابسـو الميـري. عشـرون بيتًـا لفظـت أحشـاءها بالخارج، ناس وعفش وأحلام بممارسـات صغيرة لم تتـم، تبقت من البيوت فقط الهياكل، تنتظر دهس البلدوزر فوق الجدران وتحويلها إلى ركام.

تتقـاذف بقايا متعلّقاتنا للخارج بواسـطة أياد غريبة، أرمقها هذه المرة من البعيد، أطباق فخار بعضها سـليم، كيس بلاستيك أسود مليئة بفوارغ أدوية، مشّـاية أطفال، قُلّة بها ملح، كُتب مدرسـيّة مهروسـة، طبق غسـيل فاقد لجزء من الداير وخارجة من قعره طوبة.

تعلـو أصوات الناس فـي زمجرة جماعيّة، تباغتنا جحافل العسـاكر، تركل أقدامهم كل ما تقابله. وقبل أن نفهم شـيئًا، يطير عفشـنا في الهواء، يتقافز قطعة قطعة، كنتف تلفظها مكنة عزق القطن قبل التنجيد.

بعد قليل نركض مرّة أخرى، وجمهور كثير من خلفنا يركض. يرتجف أبـي بالخارج، وبما أنه رب البيت فارتجفنا جميعًا، كصفّ الغاب الممتد

بطـول المصرف عندما تهزّه ريـح، ثم نهدأ؛ نسـتكين ونتابع المجريات، ننتظر اللحظة الفاصلة التي ستُحوّل حياتنا إلى قبل وبعد.

يقترب البلدوزر ببطء وحش يتربّص بفريسة، ينتهي في دقائق من هدم البيـت الملاصق لبيتنا، يجيء الدور على جدراننا التي تبقّت من الوليمة، أكلت الأسـنان الحديدية تسعة عشـر بيتًا في أقل من ساعتين، وبيتنا يقف بائسًـا ينتظر دوره. لم يشـفع له أنـه متمحّر ومدهون بالجيـر، هو الوحيد الـذي كان مدهونًـا، و«كان» هنا ليسـت مجازية، فقد بـدأ الغول الهاجم يجعله فعـلًا ماضيًا. فور خروجنا جميعًا، ضربت شـوكة البلدوزر البيت ضربـة واحدة فخر صريعًا، غاصت أسـنانه الحديدية الثقيلة في الجدران كأنه يقرمشها. يميل الجدار الأول، تتكفّل هزيمته السريعة باحتضان بقية الحيطان، يقع السـقف كتحصيل حاصل فوق الجدران، وكأنه مُصِر على أن يكـون سـقفًا في جميع الأحـوال. تكوّمت البيـوت الضعيفة تلالًا من الركام، وأجزاء صغيرة تستدعي فور رؤيتها الذكريات.

ردم الغبـار الناس الواقفين، وطال الطيور والعصافير، غطّى على كُتل الطوب الكبيرة، وقِطع زجاج منثورة بجوار أقدامنا. تحت الجدار ارتعش فـأر كبيـر، نصفه عنـد الذيل مزنـوق، والنصـف الآخر يحـاول الخروج سليمًا بشوارب لم تزل منتصبة. تتجوّل عيناي بين الركام والسماء وأسأل نفسي:

«هل كنّا نحتل هذه الأرض وتم تحريرها من قبضتنا؟».

تهمد الأصوات البشريّة بعد انقشاع خيوط الدخان من فوق رؤوسنا، يزداد نهيق الحمير في جلبة جماعيّة.

تُخلّف إزالة البيوت أطنانًا من الركام، يقفز حولها عيال عرايا، يتسابق ذووهم في إنقاذ من يمكن إنقاذه، وعربات كارو تتجوّل بين الأنقاض كالنسور بين الجيف، يتقاول أصحابها لنقل العفش، تترنّح عجلات عرباتهم الكارو وتفقد الاتجاه، تصدر نعيقًا حزينًا، تسير أمامنا الجنازات واحدة تلو الأخرى، العفش مسجى والملاءات مرفوعة على "مُلل" الأسرّة كالأعلام، يزفُّ العربات عيال حفاة جاءوا للفرجة من مناطق أخرى، تبتعد العربات بأحمالها، تمشي ببطء دودة تجرُّ بعضها.

كل منّا يحاول تذكّر شيء ما عن البيت الذي كان، تلتقط عيناي من الأجواء متعلقاتنا المدفونة في الغبار، بين أكوام الركام، أحذية هالكة بلا جوارب، فردة بوت أبيض بلاستيك بعنق طويل، كفّة ميزان، شخشيخة، برنيطة قش مقطوعة، زعبوط، برواز بلا صورة، علب كشري فارغة، شفّاطات ملوّنة، إطار درّاجة قديم، لجام حمار، الفوّالة مَسْحوقة، يندلق منها الفول النيء، تتوه حَبّاته بين الحصى والطوب.

خدر الصدمة يذوب ويتلاشى، لم أعد أرى إلا ما هو واقع بالفعل.

يعبُر البلدوزر كبير الحجم بداخلي، يتَمَشّى في الممرات، طعم الغبار في فمي، شكل الجدران مبقورة الجير منهوشة المحارة، تمر المشاهد أمامي على هيئة صور متتابعة لا تثبت لمدّة طويلة.

عربات الكارو تمر أمامنا، كأنها أطياف في محيط حلم، تغوص حوافر الحمير في الأرض ببطء وتجرجر يومًا طويلًا، والعجلات المنبعجة تهرس الطين وتعلن الصياح بأزيز واهن. تمر المشاهد كما لو كانت مُغلّفة بطبقة جليد زجاجية خفيفة.

20

بعد أن هدأ الغبار وانصرفت الجرافات بعساكرها وباشواتها، بات المنظر غريبًا ويصعب تصديقه. تَحوّل المكان الذي دُسْتُهُ لأكثر من نصف عمري إلى خراب، الأرض مغطاة بركام، لم يتحول في مراكز الوعي بعد إلى ركام، كانت المواقف لاتزال تخرج من كل شيء طازجة وساخنة، أشلاء الجدران متناثرة كبقايا جنود في جيش مهزوم، جوانب الحيطان مبقورة، جيرها متساقط، وكتل الطوب تجثم على أنفاس متعلقاتنا. أقف وأقعد محاولًا استيعاب ما حدث، أسمع في أذني طنينًا بطيئًا، يعلو ثم يعاود البطء، ثم تُعاد الكرّة، وأحس في عينيّ رملًا حَوّل الأجواء إلى صفرة باهتة.

في محيط البيوت، أعيد تقييم المنطقة التي عشت فيها الشطر الأكبر من طفولتي، وأعيد كذلك ترتيب أوراق الشخصيات التي عشتُ معهم وكأني لم أكن أراهم، فلمّا انفضوا وتفرّقوا رأيتهم. من يكون ساكنو عزبة العقاد؟ هم ليسوا سوى موظفين من أقل المراتب، وإن لم يكونوا كذلك فهم حرفيون فهلويون، وإن لم يستطيعوا تَعلّم صنعة فهم قُطّاع طُرق، وإن لم يكونوا أيًّا من هؤلاء فهم ليسوا من عزبة العقاد.

أفيـق من تأملاتـي على واقع لا يمكننـي تغييره، والحدث الرئيسـي، هـدد البيوت، يتملَّص ويهرب، كدخـان تبدد، يتدفق إيقاع رتيب، تتحول موسيقى التذكّـر إلـى لحـن نشـاز لا يبالـي بالعازفيـن. نامـت الظلال، وكلوبـات متناثـرة فقيـرة الإضاءة تخرج مـن بيوت كانت أوفـر حظًّا، أو لـم يـأت عليها الدور بعد، لم تهـدأ دوامات الغبار التـي خلّفتها البيادات وحوافر الضواري النابحين، ثم طُمست معالم الضوء الضعيف.

تعرينا في ثوانٍ، صرنا أقرب للحظة مكاشفة شفّافة لا تكذب. أطراف حصـر تظهر من تحت أقدامنا، مناضد مكسـورة، جزء من كرسـي حمام بجـواره إطار صـورة لأبي وأمـي، تطل ملامحهمـا المتبسّـمة من تحت الأنقاض، يضع يده على كتفها، جزء يظهر من شالها الأسود يُغبّشه الغبار وبقايا الجير المتطاير، بجوار البرواز متعلقات بسـيطة تهشّمت، صندوق خشبي لصنـع الصابون البيتي، كـوز الخياطة مقلـوب، ولا يظهر أي من محتوياتـه، صوان إبريـق فخار فاقدًا للرقبة والبزبوز، فردة شبشـب زنوبة تغـوص في بقايا مِـش قديم، رِجل بنطلون بيجامة تلحـس بقايا طعام من على سطح طبلية، جزء مدبب في حرف مرآة يطل من داخل ملاءة سرير، سـتارة متسـخة الحواف ملفوفـة على شـماعة ملابس طويلة ومتشـعبة. ومِزق من بقايا هدوم، شراشـيب سـتارة تهزها ريح مغبّرة كتلويحة وداع تناجينا من تحت الأنقاض.

نقف جميعًا بالخارج، نتراشـق بالنظرات مع أولئك الذين يشـاركوننا نفـس المأسـاة، رجـال بالبيجامـات والجلاليـب يسـبون للعيشـة واللي عايشينها، ونساء بعضهن لا يزال يملأ جفونهن أثر النعاس، يحلقن وهن يضممـن فتحـات قمصان النوم، ليدارين مسـاحات لا بـأس بها تطل من أثدائهن، وأخريات يجذبن أهداب القمصان وهن جالسات على حجارة رصيـف، يتأملن الغبار والفـراغ، وأطفال حفاة لم يلغِ المشـهد براءتهم، يجلسـون بالقرب من حافة المصرف، يصنعون عرائس طينية وسواقي من أعواد الغاب الطالع خلف البيوت المنهارة. أحد الأطفال بالكاد يستطيع المشـي، يحضـن حصانًا بلاسـتيكيًّا ضاعـت أرجله، يجلـس على حجر رصيـف مقرفصًا بعـد أن قمّطت أمه ذيل جلبابـه بخرقة من قماش؛ حتى لا يتلوث ظهره بفضلاته.

فرش أبي حصيرة، أسند رأسه إلى حلة ألومنيوم من مخلفات الإزالة، أخـذ يتقلَّب وهو نائم لايرتاح على أي جنـب، ظل لفترة نائمًا على ظهره وعينـاه ثابتتان في فـراغ لا نهائي، ينظر إلينا جميعًا نظـرات من تلك التي لا أسـتطيع تخمين قدر ما تحمله من إيحاءات، امتلأت حدقتاه بالدموع، اسـتكثرتُ دموعه أن تنزلق وتنكشـف علينا، تابع سـحابة في السـماء لم تستمر طويلًا.. بكى جدي طلبة:

«وحد الله بقى يا شيخ».

رد عليـه وهـو مقرفـص ويعبث فـي الحصـى. خرس مؤقـت أصابنا جميعًـا، صمـت تدور فيه أفكار تسـتعصي على الصياغـة، لا ينظر أحدنا إلـى الآخـر. أخرجنـي صوت جـدي طلبـة من الصمـت المطبـق الذي استسلمت له:

«يا رايحين عندهم هناك حبايبي كتار

وأنا بس اللي قاعد مستني ياخدوني

شديت قلوع مركبي وبقيت من السُّفار

حروح لهم عريان وهمّا اللي يكسوني»

بعد الانتهاء من مواله، قام جدّي طلبة، جريًا في جري، أعطانا ظهره ووقف وسط أعواد الغاب التي لا تزال شامخة، شلح جلبابه وتبول في مجرى الرشاح، ثم أخذ يبحث عن شيء ما تحت الأنقاض.

تفتتِ الغيوم في السماء كقطع قطن كبيرة تطير ببطء. همدتْ عزيمتي وأوشكتُ على النوم، فردتُ ظهري فوق أقرب كومة مخلّفات وسرحتُ.

21

هُـدِم البيت وأصبح عليّ أن أعيد بناءه من الذاكرة، كلّما احتجتُ إلى ذلك.

يأتي «فتحي» من مدرسته، يجهد نظره الضعيف خلف نظارته، بحثًا عن البيت، مُسح من على الخريطة، لم يـر إلا أمواج الخـراء تهدر من خلفنـا، وحشـرات تخرج من بين الركام، كائنات هشّـة تزفّنـا إلى رحلتنا التـي ستبدأ. مياه المصرف النفـاذة تهصر ولا تبالي بنـا، رائحتها تحدث خللًا في الدماغ وتنثر على الرؤية غشـاوة سـميكة مـن الغازات، يضرب الغـاب سـياجًا مفرغًا حـول مجرى السـائل الثقيـل. ننام جميعًـا وأعيننا «مفنجلة».

على بعد أمتار، رأيت عم شـافعي يمسـك بمنجله ويحش البرسـيم، يجلـس مقرفصًـا، تنغـرز بُلغتـه فـي وحلـة الطين، يتدلـى لباسـه الدمور ويلمـس الأرض، طاقيتـه البُنيـة معوجة على رأسـه، يجمع البرسـيم في صمـت، يضعـه أمام عنزة عجفـاء متكومة بجواره، بعد قليـل يترك عنزته وبرسيمه ويقترب منّا، يمسك منجله ويُلوّح به.

«قُلت لكم من الأول دي أرض حكومة».

جاءت العنزة وراءه، مسحت بوزها في جلبابه، شمشمت في الأرض والتقطت بين فكّيها ورقة من المخلفات، مد يده إليها ببعض عيدان البرسيم، أصبحت يده تعمل ككائن مستقل ومنفصل، لسانه يعمل في اتجاه آخر، وأردف:

«ما انتم عارفين ان اليوم ده جاي جاي. بس مش ده المُشكل. المُشكل حتعملوا إيه دلوقتي؟».

لم يرد عليه أحد، فانصرف ساحبًا عنزته العجفاء من أذنها، ذهب بعيدًا وتعسّر علينا رؤيته، أصبح كبقايا شبحيّة تخلّفت عن حلم قصير.

يقذف ولد في مجرى المصرف قفصًا مربوطًا بحبل، يمسك طرفه في يده، يغوص القفص، يسحبه بنشاط ثم يلقيه مرة أخرى بعد أن تحممه مياه المجاري. يجلس بجواره طفل آخر، منهمك في جرّ فأرٍ ميت ومشنوق بفتلة. يقف الطفلان ويُشلّحان ملابسهما، يمسكان ما بين سيقانهما ويوجّهانه لمجرى المصرف، يتراهنان على من يوصّل سرسوبه الساخن للمجرى أبعد من الآخر.

ينضم الولدان لولد آخر، يصيرون ثلاثة، يقفون بملابس غارقة في الوسخ، أكبرهم يُعلّم رفيقيه فتح المطواة من نطرة واحدة، يفتحها بسهولة ثم يرفع جزرة في الهواء، يستقبلها بحد سلاحه فتنشطر إلى نصفين وتقع في الوحل، يلتقطونها، يلتهمونها ويضحكون، ثم يرفع أكبرهم إطار سيارة نقل كبيرًا وينام أحدهم في تجويفه، يدفعه صديقاه حتى قرب المصرف، وقبل المجرى بمتر واحد يكبحان الإطار ويغيران وجهته،

ينزل بعد ذلك الراكب ويركب أحد السائرَيْن. فوق الماسورة النائمة على عرض المصرف يعبر العيال بصديقهم المتكوّر في تجويف الإطار الكبير، يَصِلون بسرعة البرق للشط الآخر، يُخرج الصديقان صديقهما، يقف ثلاثتهم والطوق أمامهم، كأنهم ينتظرون التقاط صورة تذكارية، ثم يقذفون الإطار بدفعة جماعية قوية، يسقط في مجرى المصرف، ينثر الماء البترولي اللزج على الشاطئين. يضحكون بصوت مرتفع، يغيبون عن الأنظار. تتعثّر عليَّ رؤيتهم بعد ذلك، يختفون بين أعواد الغاب التي تحجب الشاطيء الآخر.

أرحت ظهري على ربع جدار وقع كاملًا، جزء أحفظ ملامحه جيدًا، به فتحة منحنية وغويطة، صنعتُها خصيصًا لأخبئ فيها أوراق امتحانات الشهر التي كانت تحمل درجات فاضحة، كنت أقلد إمضاء ولي الأمر بإتقان، زورتها كثيرًا لنفسي، مرة واحدة فعلت ذلك لفتحي ودائمًا كنت أزوّرها لناصر صاحبي.. حتى الآن لم يعرف أحد بهذه الجرائم.

22

أسـندتُ رأسـي إلى كتلة سـليمة من الجدار المهـدّم. حاولتُ إزاحة آثـار ما حدث عن تخيلاتي، مرت أمامي أحداث مختلفة، ورأيت ملامح لأشـخاص لـم أتذكرهـم منـذ زمـن، نبـت أمامي شـريط سـينما بطيء. لا أدري لمـاذا جاءنـي «ناصـر» الآن، لمـاذا احتل دماغـي، جلس وتربع فـي هـذا التوقيت بالـذات، في هذا العـراء، ونحن ملقون فـي الظل، هل يجـوز أن أتذكر «ناصر»؟. ربما اسـتدعته درجاته الفاضحة. في حياة كل إنسـان سـر ما يريد أن يفتشـه، يفضحه، حتى ولو قاوم كثيرا، هذا الشـيء دومًا بالنسـبة لي اسمه ناصر. عرفناه أنا ومطراوي أثناء لعبنا بالنحلة على شـط المصرف، كوّننا فريقا أسميناه «أسُود الرشّاح» كان ناصر أضخمنا، طويـل كلاعبـي المصارعة، ندخل به مشـاجرات ونكسـبها، فَلَهُ شـارب مكتمـل كآبائنـا، كنا كأطفال من حولـه، وكأنه نخلة نَمَـتْ في حقل ذرة، يـدرك ضخامته وشـاربه المكتمـل، فيعاملنـا جميعًا كإخـوة صغار رغم أعمارنا المتقاربة، أنا ومطراوي في الحادية عشـرة، وناصر في الخامسـة عشـرة، كان فاضـل لـه كم شـهر ويطلّـع بطاقة شـخصيَّة، سيسـتخرجها عائليَّة بالمرَّة.

«الواد ناصر اتجوز».

ينطلق مطراوي كمدفع:

«يا شيخ».

أقول له، فيقسم بحلفانات أمه:

«والختمة الشريفة، وحياة سيدنا الحسين الواد ناصر اتجوز، ومقام سيدي نصر الدين كمان».

لم أسمع بهذا الأخير من قبل، لا بد أنه كان يعني شيئًا مهمًّا على أية حال.

ناصر؟ الشاب الصغير تزوج. منذ عام واحد كان يترك شنطته وحذاءه في الحوش بديلًا عن العارضة ويقف يحرس المرمى، تزوج، الحب والجنس والخيال. ستدور رحى معارك كثيرة فوق السرير وخلف الباب، بجوار الكنبة أو تحت الدش، لا بد سأعرف أنا والواد مطراوي كل شيء، اسمها، لون شعرها أي نفحة عن هذا الشيء السحري المسمى بالجنس، ناصر صديق جدع لن يخبئ علينا شيئا، سنسأله وسيجيب بالطبع، ما هي ألوان القمصان التي تُحبها زوجته الطفلة، هل يضاجعها على صوت الحنفية وهي تسقط على المواعين المعدنية في حوض المطبخ؟ أم يُفضّل أن يضغط خصرها ويباغتها من الخلف؟ سيجعلها كل ليلة قنطرته، ستنظر إليه وعيناها غائمتان بتداخل الرغبة مع النشوة، باختلاط الفرحة مع الألم، لا بد ستقول له: «مش قادرة» وسيقول لها: «وطّي

صوتك» سنعرف كل شيء، سنفتش سر ناصر أو سيفتشه لنا مجانًا، دون أن نطلب منه ذلك، سنعرف كم مرة يفعل في الأسبوع.. بل كم مرة في الليلة، لماذا يترك السرير أصلًا؟ لماذا يترك الجنة من أجل لِعب الكرة أو لفّ النحلة؟ في داهية فريق أسود الرشّاح. سنتجمّع ونُكوّن دائرة حول ناصر، سنتوّجه زعيمًا على شباب أسُود الرشّاح، سنستمتع ونحن نسمع حكاياته التي لابد أنها ستحبس الأنفاس.

قطع مطراوي تصوراتي الناعمة بصوته الخشن:

«الواد ناصر دا واد عيل».

«ليه؟».

سألته.

«عشان مش عايز يقول حاجة خالص. وقاللي: هو أنا أهبل عشان أكلمكم في الحاجات دي يا تافهين».

يقول وهو يضحك ضحكة ساذجة تليق بملامحه المفلطحة، انفرطت مسبحة أحلام حكايات ناصر على لسان "اللي ينشك" الواد مطراوي.. لما فشلنا ولعدة مرات في أن يتحرك هذا الجبل البشري المسمى ناصر بأي نفحة ولو حتى «فشر»، بدأت أنا ومطراوي نتصوّر، نتخيّل ونكتفي بذلك.

تبخر ناصر من دماغي، عاد للأحداث التي مر عليها أكثر من عام، استقر في مكانه المجهول على لوح الذاكرة، اهتمامات حقيرة لا تناسب

المصيبة ولكني رغم ذلك انشغلت بها، تستحوذ عليّ نقائض الأشياء في وقت غير مناسب.

أشعر الآن بمرزبة تدقُّ رأسي، تُفتت مُخي، يتناثر فتختلط أجزاؤه الصغيرة مع الحصى والغبار.

23

أنتبه، أعود للحظتي الراهنة عندما أرى «فتحي» يقف فوق رأسي، البيوت التي هدَّت حيلنا في تشييدها أصبحت ترابًا، والعفش الذي لم يسعفنا الحظ في إنقاذه كاملًا صار ركامًا، ينظر إليّ أخي ولايتكلم، أحيانًا لا يستطيع الواحد أن يُعبّر عما يراه مناسبًا، يتقهقر، يعود إلى مرحلة ما قبل اختراع اللغة والكلام، يجد سلواه في الصمت والتأمل.

تحاول أمي تغيير الموضوع، كعادتها عند الشدائد.

«خير. مش يمكن كانت البيوت تتطربق فوق روسنا. ماحدش عارف الخير فين».

عبثًا تبددتْ محاولتها في الترويح عنّا، لم تكن أمي تصدّق ما تقول، فمثل هذا الكلام طقس يؤدَّى والسلام في ظروف كهذه، تتفنن في التخفيف عنّا بطرق مبتكرة. تخص أبي بكلامها هذه المرَّة:

«حنبقى كويسين يا أخويا.. وحتتعدِّل».

كل الحوارات مقتضبة، مغتصبة، لم نجد سبيلًا إلا استسلامنا للصمت. بعض الجيران قدَّموا لنا صواني شاي مُدعّمة ببقسماط، نرقد

في الطل، نقرمش ونتأمل الفراغ، يدور حديث عن حل لوضعنا الراهن بين أبي وجدي طلبة.

أتركهم يحلمون، أصرف النظر عن الركام الذي خلَّفته الإزالة، على الرصيف تقف عربة كسح تعطي مؤخرتها للمصرف؛ لتفرغ محتوياتها في مجراه، تستدعي رائحتها مغص وتقلصات ورجَّة تجتاح أمعائي، تحرق شعيرات أنفي، غازات جهنمية تحتل الإحساس وتلبد في دهاليز المعدة ومؤخرة الدماغ طوال فترة الشم، تنهش البهجة وتسطو على كل المساحات المرحة في الخيال، لا تخرج إلا بعد انقضاء فترة العقوبة، وانصراف العربة ببغلها وكائنها الأبرص.

تتسلل من الأجواء رائحة خل حامض، يسبح فوق طبقة سميكة من فضلات تمكَّنت منها بكتيريا العفن، تنتج الرائحة أدخنة تُدمع العين وتعطل الإحساس وتفتح شعيرات المخ على تقبُّل احتمالات خبيثة. في مقدمة العربة بغل اسودَّ لونه؛ لكثرة ما كَسَحَ من غائط وأبوال وسوائل غسيل، وفي مؤخرتها رجل أبرص ثابت التكشيرة، شعره مهوَّش كلبَّادة، شاحب الوجه ممصوصه، يمسك بخرطوم جلد طويل، زلومة كاوتش مرخية ومربوطة بدوبارة في خُطاف حديد، يفك الرجل عقدة الدوبارة فتنتفخ الزلومة، يوجِّه الفوهة للمجرى الثقيل. العربة تحمل خزانًا أسطوانيًا سقط دهانه من كثرة التشبُّع بالملوحة والغازات، يقف البغل ساكنًا حتى تفرغ محتويات الخزان، ينتظر الرجل بملامح محتقنة كأنه هو الذي يفرغ بطنه لا العربة.

أتأمَّل بقسماط الجيران، أقشِّر بإظفري سمسمة محروقة من فوق أحد العيدان، أتابعها بدقَّة وهي تسقط على الأرض، وقبل أن أدس العود بين أسناني، أُجري مقارنة بينه وبين آخر مرة أكلتُ فيها بقسماط، أقضي وقتًا طويلًا في التذكّر، متى كانت أول مرَّة أكلت فيها هذه العيدان المحمَّصة؟

أضع رأسي على حلة ألومنيوم مقلوبة، أشبِّك أصابعي على صدري وأسأل نفسي: «منذ متى ونحن نسكن هنا؟» على وجه الدقة لا أعرف، في سنة ما من سنوات التدرّب على نطق الكلمات، كنت أحمل طوبًا مستعملًا من بيوت منهارة مع أمي وأخي، نكدِّسه في مكان واحد، أشيل مع أبي أبوابًا وشبابيك من ركن مخصص للخردة في سوق الخميس، نضعها عند رجل عجوز يجلس بملابس ريفية، في يده منجل يجمع به محصول أخضر، يسقيه من مياه قابضة تهدر على بعد متر واحد من أقدامه الملطخة بالروث والطين، ثمانين جنيها ثمن قطعة أرض كانت مملوكة أصلًا للدولة.

هل يعرف أبي ذلك؟ لا يعرف أنها أرض حكومة، هكذا كان يقول، فبنى وتوكل على الله، شيّد بيتًا أقل ما يقال عنه أنه «بركاوي» طوبه كالقلقاس، لم تدخله مياه ولا كهرباء، أما الصرف الصحي فتكفَّلتْ أمي بإنشائه، في البداية وضعتْ طستًا قديمًا مثقوبًا، مكَّنته جيدًا في خُص بينه وبين مجرى الرائحة النفاذة أقل من مترين، حملتْ قالبين من الطوب

وبللتهما بالأسمنت، وضعتهما ليصبحا دليلًا، أصبح بيتًا للتعب وليس للراحة، مدَّت ماسورة لا أعلم من أين جاءت بها؛ لتنقل الفضلات لمجراها الطبيعي. بعد مدة اشترى أبي قاعدة بلدي ليست عمولة كاختراع أمي، لكنها كانت تستند إلى بعض المقاييس.

تاه المتسبب المباشر في وجودنا هنا، تفرّق صاحب الفضل في ذلك بين الحكايات، فمرّة يقول أبي إن عمي الميسور هو الذي أشار عليه بهذه الفكرة الجهنّمية، واقتنع بها أبي بعد تكرار المشاجرات بينه وبين صاحب الأوضة الإيجار لأسباب مفتعلة وغير مقنعة. وفي رواية أخرى تقول أمي إنها كانت تشتري خبيزة من عم شافعي، ثم دار بينهما حديث طويل عن الأرض التي هي أصلًا ملك للحكومة، انتهى الكلام بإبرام صفقة الشراء.

«وليه اشتريتي مادام في الآخر الأرض حتروح للحكومة تاني؟».

أسألها فتجيبني:

«اللي مالوش ورث يورث في الحكومة. وبعدين المِلك حنيّن يا حبيبي. حنيّن والنبي».

أتلفّت حولي، أبحث عن هذا الميراث، وهل الحنية تسكن سقفًا خشبيًّا يحوي بين شقوقه أبراصًا وثعابين تتدلى من الفواصل كالخرق القديمة.

«يا سلام على نعمك يا رب. صحيح المِلك مِلك يا ولاد. الأرض بفلوس والهوا فوقها ببلاش».

قبل هدم البيت بليلة واحدة، كان أبي يقول وهو ينظر للسقف، والفواصل تنقّط بقايا أمطار، ممزوجة بالغبار وزبل الحمام وفضلات الفروج والبط الذي تربيه أمي فوق السطح.

24

كان هَدَد بيتنا المجازي باعثًا على الحيرة، ولكنه بداية لمرحلة أخرى بالطبع، تلاشت دهشتنا وتحوَّلت إلى قلق مستمر مما هو قادم. صرنا ملكًا لتقلبات الزمن، أصبحتْ كل الاحتمالات متوقعة، اقترب الفجر والعفش لا يزال كومة هرمية تعمل كخلفية لصورتنا الجماعية، جدّي طلبة متدثر بكليم كالمكسرات في ورقة جُلاّش، وأبي ينظر إلينا صامتًا، أسمع صوته فقط عندما يغفو، زفرات متقطعة تنفخ الكرب وتزيح الهم وتختصر ما يدور في نفسه، سرعان ما تنتهي بزمارة شخير يعلو ويهبط، حسب قدرة الرئتين على سحب الشهيق. وفتحي ينام مقرفصًا، تساعده نحافته على البرم في أي نسيج والسلام، أما أمي، فجلستها متقطعة وقلقة، غفوتها لحظية، متوثبة للقيام بشتى المهام في أقل وقت ممكن، وبوعي كامل لا تعوزه نباهة، برغم هدّة حيلها في نقل العفش والمتعلقات من داخل البيت قبل هدمه، فإنها كانت أنشط منّا جميعًا ولا يقل عزمها عن عزم الرجال.

سألتُ جدي طلبة عن الساعة، كان سؤالًا فائدته الوحيدة أنني أريد مخاطبة أحد، أريد أن أشعر بوجود ناس وأحداث وزمن يمر. رأيت ملامحه مسودّة في العتمة، شدقاه مهدلان وملامحه محتقنة، أخرج

السلسلة من صدريته وتأمّل فيها طويلًا، ثم قال بحشرجة من سُحب من بقايا غفوة:

«أربعة وتِلت. العقرب راكب ع العقرب».

تُهتُ قليلًا عن الأجواء، ذهبت حيث المنطقة الواقعة بين اليقظة والخدر. سرحت في الملكوت، هناك عند السبع الطباق وضفيرة الأحلام، حيث تتشكّل الأسماء وتتكوّن اشتقاقات الكلام، رأيت البيوت المهدّمة مسجاة كحوت ميت يتحلل، ورأيت هياكل عفشنا مُشرَّعة في الهواء، وفرقة مزيكا بالدفوف تلف من حولنا، يتقدمهم كرش مهيب يحمل فوق قبّته طبلة، بجواره مزمار منتصب، وفي نهايته شدق واحد منفوخ، ورجل آخر يُليّن خصره بالرقص كما النساء، عزفوا مقطوعة «مال القمر ماله». سرعان ما تلاشت آثارهم بعد أن وصلوا إلى مقطع «هوّ اللي متربي ع العز يا ربي»، بعد وقت لا يمكنني قياسه، عصفت بالمكان أشباح لم أستطع تحديد ملامحها، تنازعتني أنصاف كوابيس، سمعت أصواتًا مبحوحة اختلط فيها رعب المستبعدين بهتاف المنتصرين. صحوت محاولًا الهروب من أنصاف خيالات صعبة التجميع.

اختلطت الأصوات في أذني، شخير أبي بمحرك سيارة بعيد، تفسُّخ العفش وطقطقة الجدران.

خرجتْ ذاكرتي للصيد ثم عادت سريعًا، دون أن تمسك بفراشة الراحة، نظرت حولي وأنا أحاول استيعاب ما حدث، فبين عشية وضحاها أعطتنا الدنيا قفاها. هزّت ريح خفيفة العفش الواقف، مُلل الأسرَّة وفلوق

النخل وقوائم الدولاب، اهتزّت الأخشاب ومالت متفرّقة كوحش كبير يتمطّع.

ثقل جفن أبي وفي النوم غط، ارتفع صوت الموسيقى التصويرية المعتادة مرة أخرى، لم تصف أمي شخيره في هذه الظروف بأنه مزيكا، أو أنه أعذب من صوت عبدالوهاب، كانت تائهة بعيدًا، شاردة، تتوسّد خدّها قبضتها، تجلس مشدودة ومتأهبة كجلسة حارس، تستعد في كل زفير لليقظة الكاملة، تنتبه وترمش من أقل نداء، من صفير الهواء، من نقيق الضفادع، وأحيانًا من لا شيء، تفيق من غفوتها، تُصوّر المكان بنظرة سريعة خاطفة، ثم تعود لملكوتها المتقطّع، لا تصحو بشكل كامل إلا عندما يتوقف أبي عن مناجاة الملائكة في غياهب الأفلاك، وكأن صوت الزمارة في حلقه تصريحًا لها بالأمان.

تنشق السماء عن نور خفيف، أُدحرج حجرًا كان راقدًا في مكانه منذ سنين طويلة، أرى من تحته حشرات تزحف، كائنات غريبة الهيئة والحركة، صرصار له ذيل يمشي ببطء، فراشات سوداء منبطحة لا تطير، نمل طويل له هيئة مخروطية كالدود. الذبابة هي الحشرة الوحيدة التي أكنّ لها بعض التقدير، أسامحها إن هي انتهكتني، ربما لأنها قادرة على الطيران، فمن لا يملك أجنحة للتحليق يكون دائمًا في مرتبة أدنى. إزاحة كائنات أعطت الفرصة لظهور كائنات أخرى بديلة، وبسرعة غريبة قبل أن نترك المكان ونرحل ظهر ورثتنا. بعد أن أصبح ما أنا فيه واقعًا لا محالة لم يغادرني الذهول، أحاول مرة أخرى تجميع المشهد حتى يمكنني فهم

ما حدث، أحدّق في أشياء وأنا لا أقصد رؤيتها، تختلط الناس بالأحداث ببعض الخيال.

اكتمل الصبح وبانت معالم الأشياء، ظهرت قطعة الأرض التي عشت فوقها سنوات طفولتي صغيرة جدًّا، أقل بكثير من حيّزها الذي كانت تشغله في مخيلتي، شريحة ضئيلة على شط مصرف، ضاق هو الآخر فجأة، مجراه الذي كنت أراه بعرض النيل أصبح بقليل من الهمّة لا يساوي أكثر من قفزتين، كان أبي يُصوّر لنا وجودنا في هذه الخرابة على أنه نعمة من ربنا، وكأننا نصطبح يوميًّا على مجرى للذهب المصهور. حتى العفش، عندما كان منسقًا ومرصوصًا كانت له أهمية، أما الآن، وبعد أن تكوّم منافسًا تلال الخردة، اكتشفت تلاشي أهميته وزيفها، تحوَّل البحر الكبير إلى جدول وتحولت الهالات العظيمة إلى مبالغات سخيفة. في هذا المشهد كنا نتحرّك حركات ميكانيكية بطيئة، لا يملك أحدنا الشجاعة للحديث عن تصوّر مستقبلي لما ستسفر عنه الأيام القادمة.

دارت أحاديث جانبية عن سبب ما وصلنا إليه، تحوَّلنا جميعًا إلى أطفال، كل منّا يتهم الآخر بأنه المتسبب في إفساد اللعبة. رأيت أبي للمرة الأولى بعيدا عن كونه أبا أخشاه وأسمع كلامه، تحوّل إلى رجل عادي رأيته بعيني يخاف من العساكر والضباط، يجري أمامهم كشخص فقد عقله. لم أصدق أنه هو نفسه الذي سألني منذ ساعات عن درجات الشهر في المدرسة. في هذه اللحظات القليلة الكاشفة تأكَّد لي أن أبي لا يخاف فقط من المرض، من الجنون، من الموت، ولكنهم لو اخترعوا مصلًا لعلاج الخوف، سيخاف أن يُجرِّبه.

سألتُ جدي طلبة مرة أخرى عن الساعة بعد أن مرّ عليّ دهر، فحملق كما المرة الأولى وقال:

«خمسة ونص إلا خمسة. العقرب راكب ع العقرب».

تكوّم أبي مقرفصًا كجنين كبير، تحصّن في تجويف صنعته أعمدة السرير والحُصر المفرودة، كان يود لو يدخل في الأكواب والحلل. يداري بيده الشق الفاضح في جلبابه، لأكثر من عشر سنوات وهو يفخر به، فهو هدية جاءته من الحجاز، كان يتباهى به وكأنه آية من زخارف المحمل.

سَرَتْ في بدني قشعريرة، كنتُ شبه نائم أقاوم الغياب عن المشهد، وأحاول أن أرى ما يحدث لنا بعينيّ أنا، لا من خلال ما يُقال من كلمات، ثَقُل جفنيَّ فتركت عينيَّ يغمضان، أو كذلك هُيِّئ لي، صرختُ في أبي، «أنت اللي جبتنا هنا، أنت السبب»، يصفعني قلمًا واحدًا شديدًا، أقفز بسببه في مجرى الصرف، أستقر قليلًا في القاع ثم أطفو، أقاوم الغرق، أفيق، أفتح عيني، أتأمل العفش فأجده كما هو، وأنا نائم بجوار جدي طلبة.

25

«الصلاة خير من النوم»...

قـام أبي واغتسـل، توضأ، صلـى الفجر حاضرًا وأمامـه أطلال عفش مسـتّف وأشـباح بشـر يتقلّبون. اسـتغلّت أمي هذه الدقائق حتى تغمض عينيهـا المجهدتين وتريح بدنهـا المتعب. كانت تغمـض لثانيتين وتفتح فـي الثالثـة، ترانا بنصـف وعي كما لو كنا طيـرًا حط أمامها فجـأة بعد أن تكسَّـرت أجنحتـه وتحطَّمـت عزيمتـه. فـي وقت الغفـوة السـريع تأخذ ملامحهـا صرامة المفكرين وشـرود الفلاسـفة، وفي الثانيـة التي تصحو فيها كانت تبتسم كما لو أنها تعتذر عن لحظات الغفو التي تركتنا فيها.

مـن بعيـد رأيت ظِلّـه، جاء يـدب الأرض، أعرفه مـن البالطو الطويل الـذي يلبسـه صيفًـا وشـتاءً، عمي الميسـور، ظهـرت زوجتـه كخلفيّة له وبجوارهمـا نوال تحمل صينية طعـام مغطاة بملاءة، حطها عمي بيننا في نفس توقيت إلقاء التحية:

«صباح الخير».

قالهـا ولـم يرد أحـد، فالجفـون متعبة من السـهر بعد البحـث طويلًا عـن النعاس. جلسـت زوجة عمي وبـدأت تضع البيـض والبطاطس في

ساندويتشات وتوزعها، كان أول من مد يده هو جدّي طلبة، خطف ساندويتش وانتظر يد نوال لكي تمنحه واحدًا آخر. على مضض، بدأت أدس في فمي لقمة، وأبي وفتحي أيضا، أما أمي فنزلت وقرفصت بجوار زوجة عمي تشق الساندويتشات للرجال مثلها، لم تفعل ذلك بدافع الجوع أو المساعدة، كانت تريد أن تقول لزوجة عمي لستِ أحسن مني فأنا أيضا أجيد صنع الساندويتشات للرجال. وقع من أرغفة الفينو بعض السمسم في حِجر أمي، فلمّته في كفها وسفّته:

«نعمة ربنا برضه.. حرام تقع على الأرض».

قالت ثم قامت بهمّة، أحضرت «الباجور»، بحثت عن أكواب الشاي حتى عثرت عليها، قرفصتْ وأعطتني زجاجة بلاستيك فارغة ملأتها بسرعة من دكان الأطرش. بعد أقل من عشر دقائق، كان كلّ منا يحمل في يده كوب شاي.

يقترح عمي أن نذهب معه إلى شقته الضيقة بالمطرية، جذبت زوجة عمي ذراع جدي طلبة فَهَمَّ واقفا وهو يبعد عنها كفه الممسك بالساندويتش. وقف في منتصف الدائرة، ينتظر ما ستُسفر عنه نتائج التفاوض. وينفض عن قبة جلبابه صفار البيض.

26

ساعات قليلة تمر، تقف أمامنا عربة نصف نقل تفوح منها رائحة زبل غنم، ينزل منها عمّي متلفعًا بلاثة كبيرة، يشير لنا بأن نرفع المنقولات، بحيل مهدود ونفس خاسئة نحمل عفشنا الفقير. يُصِرُّ جدي طلبة على الجلوس في «الكابينة» ويوافق أبي بضيق، يمشي خلف السيارة مع أمي وفتحي.

يحملني أبي، بقفزة واحدة أتكوّم بجوار المنقولات، أتأملها، تمشي السيَّارة وتدوس على الركام، أتابع العجلات وهي تهتز فوق الجدران المفتتة وتسحق بقايا المتعلِّقات، تطقطق كسرات أطباق بلاستيك، منثورة، تُلوِّن الأرض الرمادية. في نظرة وداع أخيرة، أتابع حركتها السريعة من فوق صندوق السيَّارة.

أتكوَّم بجوار كراكيب كان أغلبها اكتشافًا بالنسبة لي، قُلّة وسّعتْ أمي زورها وخصصتها لتخزين الملح، درج قديم بلا مكتب، كوز صاج كان منذ سنوات معبأ بلبن أطفال جعلته أمي كوزًا للخياطة، تضع فيه إبرًا من كل شكل ولون، إبرة سراجة، إبرة لضم خرز، إبرة معقوفة لتصليح الأحذية، تتصاعد الأحجام حتى تصل إلى إبرة تنجيد طولها ربع متر، عن طريق محتوياته كانت ترتق كل ما مُزع من ملابس وترفي مقدمة ما

بلي من جوارب، وتخيط ما وقع من حمالات فانلات وتشد ما ارتخى من أساتك ألبسة.

كانت محتويات الكوز تُمثِّل لأمِّي عدة كاملة وعتادًا محترمًا، يساعدها في تصنيع حمالات صدر لها، تستعين بأقمشة يُفترض أن عمرها انتهى، تبعث فيها الروح من جديد عن طريق الصبر وكوز الخياطة، بناطيل ضاقت عليّ أو على فتحي أو لفّات البفتة لأنس، تمزقها وتقصها بمقص تنظيف السمك، تُحْضِرُ ملاءة قديمة تقورت من منتصفها ولم يتبق منها سوى الداير، تشقُّها وتصنع منها بياضات للوسائد، وإذا تقوَّرت في الوسائد الطويلة قصَّتها للقصيرة، وإذا حدث نفس الشيء مع القصيرة جعلتها مناديل، وإذا بليت المناديل ركنتها في المطبخ لحمل حلة أو كنكة أو براد. حتى القصاقيص التي تشحتها من الخيّاط، كانت تقصَّها شرائط في عرض إصبع، توصلها في بعضها عن طريق كوز الخياطة، فيكفي طولها شارعًا، ثم تلفّها على شكل كوَر في حجم بطيخة، تعمل منها السجاد البلدي الملوّن وتفرشه على الكنبة.

أرى أمامي قفص عيش مخلخلًا، أكان لا بد أن أراه الآن؟ ربما حضر أمامي ليذكرني بالمشوار اليومي لطابونة العيش البلدي، كان صاحبها شيخًا ملتحيًّا اسمه الشيخ ناصر، أذهب مع أمي وأنا أحمل القفص تحت إبطي، تعطي للشيخ ناصر ريالًا صحيحًا، فيشير لها تحت الطاولة الكبيرة المرصوص عليها العيش:

«حتاخدى كام انهارده يا ست عيشه؟».

يقول لها، وهو يدس الريال في سيالة جلبابه الملطخ بالدقيق والعجين:

«أربعين رغيف زي كل يوم».

تقول له وهي تفرد طرحتها على طول ذراعها، تجلس تحت الطاولة وتبدأ في فرز العيش، فوق الطاولة مرصوص عيش مفقَّع ووجهه محمر، أمد يدي لألتقط واحدًا فتمسكه أمي وتسحبه مِنِّي، تجذبني من كتفي فأنزل معها لتحت.

«نقِّي معايا أربعين رغيف».

تقول وقد أنجزتْ بالفعل فرز خمسة أرغفة، تصرُّها في طرحتها، ذرات الدقيق تتجول في فضاء الفرن بشكل مستمر كالهوام، يتعلق بعضها بإيشارب أمي الكحلي القصير -الذي كان طرحة طويلة قبل تحويله لأربع إيشاربات - لا يشغلها الصهد الطالع من الفرن ولا الدقيق المتطاير الذي يستقر بعد رحلة طواف على الأرضية البيضاء المقلقسة، لا تهتم سوى بفرز أفضل خبز موجود تحت الطاولة.

«أنا باخده للفراخ. ما انت عارف يا شيخ».

تقول أمي، يقف الشيخ خلفنا يتابع عد الأرغفة.

«وهوّ أنا سألتك؟ ما انتي حُرّة».

يرد عليها، فتتظاهر باندماجها في جمع العيش ولمّه في طرحتها، تعد بصوت عالٍ:

«خمسة وتلاتين. ستة وتلاتين».

تُكمل أمي عد أربعين رغيفًا بالتمام، تُخرج من عبها شلنًا، تعطيه للشيخ ناصر وهي تبتسم ابتسامة عزيز قوم:

«هات بالشلن دا بقى عيش طري. أصل التاني اللي احنا خدناه دا للفراخ».

لا ينشغل الفرَّان بتعقيبها، وأنشغل أنا لبرهة مع رجل أسود عرقان يقف أمام صاجة الفرن، يمسح مقدمتها بأسطبّة مبلولة، ثم يرمى تحت الطاولة برغيف نقْضة أو رغيفين.

أحمل أنا الخمسة أرغفة وتحمل أمي الأربعين رغيفًا ونخرج، ترفع طرحتها الثقيلة، ترص العيش المعيب على القفص، فبشكل ما لا بد أن يطول الأرغفة المكوّمة تحت الطاولة تشويه ما، رغيف عجينُه مُكوَّم فلا تظهر له دائرة، منبعج من اتجاه واحد، مبقور من الجزء المحمص، مخدوش ومحمص أكثر مما يجب، أبيض وناقص سِوا، فاقد لجزء من الوش أو مخروم من القعر. ترصُّه أمي ثم تضع فوقه الخمسة أرغفة السليمة، أرفع القفص فوق رأسي وأمشي خلفها.

أعرف من كثرة التكرار أن الفراخ التي تقصدها أمي، هي أنا وفتحي.

أُنزل قفص العيش من على رأسي، تفرز أمي الطري منه وتضعه في صُرة، جلابية قديمة خرجت من الخدمة بعد مجهود شاق، تُعلّقها من أكمامها في جنش صغير نازل من السقف؛ حتى لا يطوله النمل أو تنهشه

الصراصير أو تتسلقه العناكب، تضع بجواره كيسًا به مسحوق فينو ناشف ومطحون تصنعه من تحويشة بواقي السندويتشات، تفقش فيه بيضتين أو ثلاثًا، وفي أوقات الرضا تُلقي في الخلطة ببعض أوراك أو أجنحة، أو فرُوجة كاملة ذبحتها بعد أن كانت على وشك الهلاك.

تنتهي أمي من شنق الخبز الصابح الطري وتنظر إليّ والبؤجة تترنَّح في الهواء:

«دول لأبوك. غلبان سنانه اتكسَّرت».

ثم تشير إلى العيش المشوه: «واحنا بقى يا حبيبي نقرقش من دول لحد ما يخلصوا».

تقول وهي تضع ما تبقى من الخبز المعيب في فرن البوتاجاز «الأطلس»، تستخدمه للخزين بعد أن كُتمت جميع شُعله منذ سنوات.

«طب وجدي طلبة؟».

أسألها، فهو في أشد الاحتياج للعيش الطري أكثر من أبي، فترد:

«جدك عنده عِدّة سنان. إنما أبوك غلبان مبقاش يقدر يطحن زي الأول».

وأمقت ذلك الخبز الناشف، وحده الفقر هو من أتى به إلى هنا وليس أي سبب آخر، أدس اللقمة منه في طبق الملوخية فتخرج بيضاء من غير سوء، أحمل عليها قطعة بطاطس أو كوسة أو حبة فاصوليا فتتدحرج سريعًا ولا تقبض عليها، كما هو الحال مع العيش الطري؛ الذي يطاوع في التكور والتحور إلى «ودن قطة» فيسهل أكله ويسهل هضمه. تقول

أمي إن العيش الناشف ينفع في غموس الجبنة، ويخشّن المعدة قبل شرب الشاي، ولكني أرى مكانه الأصح عندما تنهال عليه تهشيمًا بيد الهون الخشب، تُحوّله إلى قطع صغيرة قبل أن تلقي به في حلة عدس، فيتحول إلى فتة مُحسنة ومدعمة بخلطة البطاطس والتقلية والبهارات الحرّاقة.

كان أبي يعطيها المرتب المتواضع أو المبصوص فيه ويقول لها:

«اللي يفيض من المرتب شيليه يا عيشة. وخلّي بالك إن الدنيا إذا حَلَتْ أَوْحَلَتْ».

فتُدبّر أمرها بالحيلة، وعندما تنسف المرتب كثرة الطلبات التي لا تنتهي أبدًا، يجيء دور أمي الذي لا ينتهي أيضًا، تربي الطيور فوق سطح البيت المِلك، الذي كان حيًّا يُرزق منذ ساعات، تُسمِّنها من قشر البطيخ، كنَّا نأكل أحمره ونترك للفراريج أبيضه وأخضره ونقزقز أسوده في سهرات الليالي الطويلة، بعد رشه بالملح ووضعه لثلاثة أيام في الشمس، ترمي أمّي للفراريج أيضًا الطبيخ الحامض، وكناسة الأرز المتخلف عن طقات الغداء، والخبز الناشف العفن بعد صب الماء عليه وتحويله إلى فتة، ثلاث فروجات وديكان وبطة، ربما يزيدون ولكنهم أبدًا لا ينقصون، تبيع الديك لتاجر بوجه أحمر يأتي من المرج راكبًا دراجة نصر، منتفخة من الخلف بصندوق حديدي كبير يمكنه استيعاب خروف، تعمل له أمي كوباية شاي ثقيلة حبر، يجلس أمام البيت على المصطبة، يرشفها وهو يمسح العرق النازز من وجهه بكم جلبابه الواسع، تخرج أمي وهي تقبض على جناحي الديك، تمد يدها له:

«والنبي لولا الحوجة يا عم منصور ما أبيعه أبدًا».

يترك الرجل كوباية الشاي، يلقف منها الديك ويهم واقفًا:

«ربنا يسد عنا وعنكم وعن المؤمنين أجمعين يا ست عيشه».

يقف السعر عند جنيه ونصف، وتزحزحه أمي إلى جنيهين فتعيد عليه مسألة الحاجة.. ينتهي الرجل من آخر رشفة في كوب الشاي، يقول:

«مانا برضه هاكل فيه عيش يا أم فتحي. وربنا يكرمنا جميعًا».

تُلقي أمي بالديك خلف الباب الموارب في حركة تفاوض أخيرة، يتابع الرجل الديك الذي يقفز بسرعة للداخل وكأنه متضامن مع أمي، فتقول وهي لا تنظر للرجل صاحب الوجه الأحمر:

«نفس الديك ده اتفصللي أول إمبارح بـ 175 وأنا اللي مرضيتش».

تزداد ملامح الرجل احمرارًا، ينز من كل ما بان منه العرق، يقول وهو يمد يده بكوباية الشاي التي تسحبت حبيبات التفل على حافتها:

«يبقى زي ما اتفصل».

وقبل أن ترد أمي يشير لها الرجل بكفه كمن لا يريدها أن تتكلم:

«وحياة حبيبك النبي ما انتي قايله حاجة تاني».

تذهب أمي للداخل، تحضر الديك وتضعه في الصندوق الحديدي، الذي حفظت منظره من كثرة ما حمل طيورًا من تربيتها وهي تقول:

«غَلَبْتني وحلّفتني بالغالي. حقول لك إيه تاني بقى؟».

يرمـي الديـك في صنـدوق الدراجـة الحديـدي وتضع أمـي الـ 175 قرشًـا فـي حمّالـة صدرها، ثـم تُخبّئ ما يفيـض (إن فاض؟!) في كسـوة المرتبة، تُخيّطها غرزتين كعلامة، تسحبهم عندما تفرغ الدنيا من الفلوس ولا يصبح هناك طريق آخر.

أما الفراريج الثلاث فكان بيعها عليها أثقل، التفريط في بيضة كل يوم أو حتـى يومًـا بعد يوم لم يكن سـهلا، فذلـك يضمن ربحًا يوميًّا بسـيطًا، لكنه دائم، خمسـة قروش، سـبعة، وأحيانًـا بريزة بحالها، فتشـتري اللبن وتعمـل فتة رقاق أو أطباق أرز بلبن أو صينية مفروكة، ثم تدّخر ما يفيض مـن اللبـن، تغليه وتصبّه في طاجـن فخار كبير تضع فيـه الجبنة القريش، نتشـاجر عليها عند الفطور، فقد كانت أطعم من القشـطة وألذ من بضاعة الدكاكين، على حد مقولات التحسـين التي كانت أمي تجيد إلقاءها أثناء الطعام.

بجـوار قدمـي أراها، علبة شـيكولاتة فارغة أعرفها جيـدًا دون معرفة شـيء عن محتواهـا، جاءتنـا هكذا، علبـة فارغـة، كانت أمّي تسـتعملها لتخزيـن مفكّات ومسـامير صلب تنسـاها لسـنوات حتى يجيـئ دورها، تدقهـا فـي الحيطان لتعليق الملابس، فلا مشـاجب ولا شـمّاعات، على غطاء العلبة المسـتطيلة صورة، عروسـة وعريس منمقيـن، مُلونين، طال الصدأ شـقّة العريس الممدودة إلى عروسـه، وتَقشّر جزء من قفّازه، أفتح العلبة ولا أجد فيها سوى فردة جورب وحيدة مكوّرة.

قبـل أن أتأمّـل ملامح العروسـين، تقف السـيّارة، وتهـب رائحة زبل الغنم من جديد.

27

ينـزل جـدي طلبة مـن الكابينـة، يبدأ في فك السـلبة، يتحـرر العفش مـن قيـوده وتقع حلّة، يفاصل في الأجرة، ويقول له السـائق إن عمي دفع الحساب كاملًا.

تنتظرني نوال بالخارج، تعاتبني عيناها، ثم تلاطفني، تقول:

«نورتوا».

ثم تنقل عينيها إلى العفش.

تحط السيارة حمولتها، يتناثر العفش أمام شقّة عمّي الميسور، أقفز من فوق المنقولات لأثبت لجدّي أني يقظ، أفرك عينيّ لأتفقّد المكان وأتعرّف عليه. أعمدة إضاءة متباعدة تسيّج بنايات غير مكتملة بجوار بيت عمي. نسائم من هواء نظيف تهب عند ناصية البيت، شرفات مزيّنة بالأزهار ودكاكين تعرض الحلوى والحاجة الساقعة، غفوتُ وأنا واقف من شدة الإرهاق والارتباك، أغمضتُ عينيّ، مرّتْ أمامي عاصفة ناعمة بيضاء.

في سـيارة أجرة أسـوأ من سـيّارة نقـل العفش تصل العائلـة، يلفظهم الصندوق سـريعًا. أمي وأبي وفتحي، تُنزِل أمّي «أنس» بكرسيه بعيدًا عن

الكركبة، نتحلّق أمام العفش المتناثر، يسرح أبي وتفكّر أمّي بجدّية في كيفيّة قعادنا عند عمي لأجل غير مُسمًّى، وكيف ستستوعب شقّته عفشنا، يقف فتحي صامتًا، غبار الطريق أخفى شاربه الخفيف، وجدّي طلبة جلس على أقرب حجر صادفه، أمّا أخي أنس فكان تأمله يلزمه بعض الوقت والخيال، ربما لثباته النسبي وجرْيُنا نحن دون توقّف، لا أراه طفلًا صغيرًا، فهو أخي الأكبر على أية حال، رأسه في حقبة لم تأت وجسده في زمن ولّى، توقّفت ملامحه على رُبع ابتسامة ثابتة، عينين صافيتين، صريحتين، فلا اضطرار يجعله يضع حاجزًا بين ما يحسّه بالفعل وما يجب رسمه على ملامحه، يحتفظ بأحاسيسه طازجة دائمًا، تخص اللحظة المراد التعبير عنها، لا ينشغل بادخار الإحساس لاستخدامه في تعبيرات لفظيّة قادمة.

لم أهتم بالحرج الذي تكلم عنه أبي مع أمي، نوال فقط كانت تشغلني بملبسها النظيف والعطر الذي يفوح منها بشكل دائم، كذلك شقّتها المُرتّبة، لها صالة وفيها أنتريه، وفوق رف مُزيَّن بقزّاز تليفزيون مُلوَّن، الشقّة لها بلكونة تكسوها ستارة بكرانيش وشِبّاك له سلك يمنع دخول الناموس، الحيطان ليست مدهونة بالجير، كانت مُزخرفة بورق ملزوق مُلوَّن.

لم أهتم أين سننام. فقد كنتُ نائمًا بالفعل.

28

في اليوم الأوَّل لنا عند عمي، زاد ارتباك الكبير والصغير، تسعة أشخاص في غرفتين، لم يكن هناك مكان لعفشنا، وكالعادة كانت التدابير من اختصاصات أمّي، تُرتّب متعلّقاتنا في مدخل منور صغير يطل على شقّة الجيران، انحشرنا جميعًا في أصغر أوضة، غرفة مهملة بجوار الحمّام كانت تُستخدم قبل مجيئنا لتخزين الكراكيب، رصّت أمّي عفشنا رأسيًّا في ركن واحد، ثم فرشتْ كليمًا بُنّيًّا أكله العث وتصرّفتْ فيه عوامل التعرية.

في الليلة الأولى، سهر أبي مع عمي حتّى قبل الفجر بقليل، يتكلّمون عن أحوال البلد ويقترحون حلولًا لمشكلاته المزمنة، يُشغّل عمي المسجل على صوت المديح، يلوكان المضغة، يحاول جدي طلبة التدخل في حوارهما بما تيسّر.

تلتهم حكاياتهم أغلب ساعات الليل حتى تثاءب عمّي ووجب النوم، كان أبي يهرب من تلك اللحظة، وقت النوم، أين سننام؟ تكوّمنا جميعًا في غرفة مليئة بالكراكيب، عندما دخلتُ مع أبي كان فتحي ينام مطمئنًّا في ملكوت بعيد، وأمّي قلقة، تنام على جنبها، تتوسّد سنّادة

كرسي أنس، بينها وبين فتحي مسافة تكفينا أنا وأبي فنمنا، تفادينا جدِّي طلبة الذي تكوَّم بشكل عشوائي، الكرسي المتحرِّك خلف رأس أمِّي ومن فوقه أنس غافٍ، نام أبي بجوار أمي ونمتُ أنا بجواره، رحتُ في خدر سحب مني رؤية الأشياء واضحة، ولم يعطني بدلًا من ذلك خيط الأحلام، لم أنسحب تمامًا ممن حولي، رأيتُ أصابع أمِّي تطمئن بين الحين والآخر على أنس، تلمس كفَّه الصغيرة فيكمل نومه بعد أن تُدركه الطمأنينة، ورأيتُ جدي طلبة يسعل حتَّى يوقظ من في الشقَّة جميعًا، أصحو، يهرب الحلم ويتبدد، أتابع ملامحه النائمة التي لا تتحرَّك، أنام مرّة أخرى، لا أروح في النوم بشكل كامل، فقط أُغمض عينيّ، فأرى يد أبي الكبيرة تستقر على كتف أمِّي العاري، أستيقظ مرَّة أخرى فيهرب الحلم من جديد، وأرى أمي تلبس جلابيَّة بيكة بِكُم، يُغيِّبها النوم في دنيا غير الدنيا.

تتسلَّل أشعة الشمس من المنور الصغير، أفتح عينيّ فلا أجد أبي، تستيقظ أمِّي ثم توقظنا جميعا، تَصْحِية فتحي وجدي طلبة كانت الأشق عليها، فنومهما ثقيل لدرجة أنني كنتُ أشفق عليهما. أحمل معها الكليم الثقيل، كان طويلًا وسميكًا ينوء بحمله حمار، نُخرجه في الشمس قبل أن يستيقظ جدي طلبة، يفرك عينيه ويهرش في قفاه، ينفلت منه مسموعًا قبل أن يشق طريقه للحمَّام، يعود ولا أثر لراحة على ملامحه، زوجة عمي في الحمَّام، تضع أمِّي يدها العفيَّة على كتف جدي الهزيل:

«معلهش يا ابا طلبة. استحمل شويَّة».

لا يتكلم جدي، يجلس على الأرض، تقرع أمِّي باب الحمَّام وترد زوجة عمي بصوت يتصنَّع الصبر:

«حاضر»..

تخرج بعد قليل ملفوفة ببشكير كبير، شعرها باين ولا تضع على رأسها طرحة مثل أمِّي، تفوح منها رائحة صابون الوِش الغالي، تلبس في قدميها شبشب بفرو مثل نيللي ونجلاء فتحي كما تظهران في الأفلام، تقف أمِّي ساهمة، ثم تتحرك في اتجاهات متضاربة عندما تزغر لها زوجة عمي:

«الحمَّام فِضي يا عيشه. بس متخليش العيال يبروا الصابونة. أنا لسه فاتحاها»

تنظر إليها أمي دون أن ترد، تسحب جدي طلبة من يده وتدفعه برفق إلى طريق الحمَّام:

«شد حيلك شويه يا با طلبة. وخلي بالك من الصابونة».

29

توقَّفَتْ عينـا نوال فـي عينـي، فانفتحتْ بوَّابـة خفيَّة تجـذب أعضاء متوتـرة فـي صـدري وتضرب بعضهـا ببعـض، كان ثبـات نظرتهـا عليَّ يربكني، يشـتت تركيـزي ولا يخرج الكلام مكتملًا. كنُت أُصلِّي الوقت بوقتـه ورغـم ذلـك أتأملها بعين كاشـفة، أُعرِّيها مـن كل ما سُـبِلَ عليها، أتخيَّـل مرونـة جسـدها وشـكل ثدييهـا، حجمهمـا وصلابتهما، تسـري شـعيرات من اللذَّة فـي مؤخرتي وقفاي، تنتعش سلسـلة ظهري ويتخدَّر ذراعاي، لا أقوى على العودة لما كنتُ عليه قبل مجيئي إلى بيتها، ربطت لا إراديًّا بينها وبين مقتنيات شقتها، عندما تجلس على الكرسي الهزَّاز في البلكونة الصغيرة، أرى الكرسـي يُحرك شـيئًا في نفسـي، وعندما يجلس عليه عمي يتحوَّل إلى مجموعة عصي من الخيزران فقط.

انشغلت بنوال أكثر من ذي قبل؛ خاصة قبل أن يطاردني النعاس، لم تعد هي الطفلة التي تشبه الأولاد، بدَّلت الضفيرتين الصغيرتين بضفيرة واحدة مرسلة للخلف كذيل فرس، ملامحها أصبحتْ أكثر وضوحًا ونضارةً، نظرتها أيضًا كانت دخانيَّة ومغرقة في سرحان مُبهم، أرى ابتسامتها انفراجة للهموم، تبان أسنانها وترتفع غمازتاها فيشتعل

خيالي. لم تكن كلمة «حُب» المكوَّنة من حرفين تصلح لما أحسُّه تجاه نوال، حاولتُ استخدامها في سِرِّي ككلمة تفي بالغرض والسلام، سد خانة، فوجدتُ أن انجذابي تجاهها كان نابعًا من أشياء معنويَّة، ليس لها اسمٌ، أحب أن أبدو دائمًا أمامها نظيفًا ومهندمًا، أحرصُ على إزالة رائحة عرقي بشكل مستمر، أمرر صابونة الوِش على رقبتي، أُسقطها في عِبِّي وأُمَلِّسُ بها تحت إبطي لتصبح رائحتي حُلوة، أقفُ أمامها باحثًا عن تعبيرات رقيقة، تخرج منِّي كلمات غبيَّة ولا علاقة لها بما أودُّ قوله، ينتفض بدني وتشتد أوتار خفيَّة وتنقر بطني، يخفق النبض وأرتبك، أدبر كلمات مُرتجلة، أتحوَّل أمامها إلى شخصين، واحد يحوم فوق البيوت الصغيرة والأشجار يغزل شعرًا، وواحد مدَّعي نظافة وشاعريَّة تُربكه بصَّة من طفلة، الطائر الحالم خطف في الهواء قُبلة من خد أبيض له غمَّازة، والآخر يقفُ خائبًا لا يُفكِّرُ إلا في عمّه الذي يمكن أن يأتي من شُغله في أي وقت.

المرَّة الأولى التي صاحبْتها فيها كانت يومنا الأول في المدرسة، كُنَّا طفلين في السادسة نرى الدنيا كبنُّورة مسحورة.

كان يومًا دراسيًّا سخيفًا ومملًا، عدت للبيت مع نوال، كانتْ أمُّها تحط حمولتها من السوق، تركن شنطة يطل منها سمك بساريا نيئ، رائحة زفارته تملأ شقَّتها، أسرق بعضه وتحمله نوال معي، نضعه على كرسي حمَّام، أجلس أنا أمام النصْبة وتجلس نوال بشكل متأهب للزوغان، أهفّ عليه بالمقشة وتنفخ هي في إصبعها متظاهرة بأنه لُسع، تتجول القطط

المتشردة حولنا فتظفر بما فيه النصيب، تخرج أم نوال وترانا، تترك ابنتها وتجري ورائي، تهرب نوال للبراح عندما تشعر بالخطر، تتركني أقاوم وحدي مطاردة زوجة عمي، يصيبنى الخرس ولا أرد، وشيئًا فشيئًا أتنازل عن المقاومة، أصبح كمن رأى قطارًا وتأكد أنه سيبتلعه لا محالةَ، أقع فوق كرسي الحمام، أتخبَّط في البيبان كالكرة الجلد، فيتناثر السمك وتهيص القطط.

لم أقابل «نوال» بعد ذلك سوى مرَّة واحدة، منذ ثلاث سنوات تركتْني أمي عند عمي نصف نهار لسبب لا أتذكَّره، قضيت الساعات مع نوال، حاولنا رشق يد المقشَّة بين ريش مروحة السقف، وعرفتْ أمَّها، وضربتْني وحدي.

منذ ذلك الحين، استقرَّت صورة زوجة عمي في دماغي على شكلها الشرير، ظل هذا المشهد في ذاكرتي لمدَّة طويلة، حتى أصبحنا ضيوفًا على عمِّي وزوجته. كنتُ في الثانية عشرة وربما في الثالثة عشرة، لا أتذكر جيدًا، أفكِّر في نوال بشكل مختلف عن يوم السمك، ثلاث سنوات جعلتني أتخيلها في شكل أنثوي أكبر من سنِّها، فقد كانت تلبس فساتين بكرانيش وبناطيل بتوكة وحزام، أتابعها وهي تتكلَّم وتضحك، أشعر بمتعة لا أعرف سببها، أفتِّش عن مصدرها، يتخدَّر فكيَّ وأشعر بأسناني تهتز في لثتها، وضربات لذيذة تنقر مؤخرة دماغي، تجتاحني سخونة لا أعرف كيف أُبرِّدها ويعمل مغص لذيذ في بطني، أسرح كثيرًا، أحتاج إلى نوم طويل، تخمل عضلاتي وتنكمش رغباتي التي لا أفهم كيف أُعبِّر

عنهـا، كانت أحلامي بها تقاوم التفسير، حتى لَعِبهـا معي، أصبح حذرًا، أتعمَّد لمسـها وتتعمَّد الابتعاد واللوم بالنظر، كنتُ أُعيد خَلقها من جديد في عقلي الباطن، يراها ذلك الباطن المجهول أنثى كبيرة، لا أعرف مدى قدرتها على احتوائي، ولكني كنتُ أعرف شيئًا واحدًا جيدًا، أنَّها تستطيع فعل ذلك الاحتواء بشكل ما أجهله.

أبتعـد عن نـوال عندما يصل عمي محمَّلًا بشـنطة كبيرة، نسـاعده في شـيلها وندخل، يفتحها أمامنا في صالة الشـقَّة، لحوم مطهوّة وعيش فينو قابب، أشـياء كثيرة لا أعرف لها اسـمًا تبقَّت من وجبات المسـافرين في المطار. وضعتْ زوجة عمي أمامنا من الشـنطة ما تيسَّـر، ثم شدَّت عليها قماط قُماش وأدخلتها إلى غرفتها.

30

انكسرت سنتي الأمامية عند إزالة بيوتنا، لم أهتم بالأمر وقتها، تبسُّمي فـي وجه نوال جعلني أهتم، لم أفتح فمـي بعد ذلك كثيرًا، وإذا ضحكت وضعت يدي على أسناني. اصطحبتني أمي إلى طبيب المدرسة، حوّلني بخطـاب إلـى المستشـفى، كان طبيبًا مبتسـمًا بشـكل دائم وكأنه اسـتلم الابتسامة مع الوظيفة، لم يكشف عليَّ ولكنه سألني:

«بتشتكي من إيه؟».

«سنتي».

«لازم تتخلع».

«وحتطلع سِنّة غيرها؟».

«الله أعلم!».

لم يكن أمام أمي إلاّ أن ترد:

«ونِعم بالله».

نخرج دون خلعها صامتين، غاضب أنا من فقداني نصف السنّة وأمي تحمد الله على نصفها المرشـوق في اللثة، تحرِّضني بأن أرضى بنصيبي

في النصف المتبقي، تحسبها دائمًا بحكمة نصف الكوب الفارغ ونصفه الملآن، طريقة ترسّخ للرضا بالمقسوم وتُشجّع بقاء الحال على ما هو عليه.

بعد أن فقدتُ سنّتي، أصبحتُ أفتح فمي للكلام والطعام فقط، أجاهد لتحجيم تبسّمي، أمتنع عن الضحك نهائيًا. بعد أيّام يسْوَدّ نصف السنة فأذهب مع أمي لنفس الطبيب المبتسم، يعطيني حقنة في اللثة، تنفخ نصف وجهي، يصبح في حجم «الشيزلونج» الأبيض المتسخ الذي أستلقي عليه، يمد كمّاشته داخل فمي، يخرجها ببقية السِّنة التي فقدت نصفها الآخر على شاطئ الرشّاح وتاهت في ركام الهدد، يتلصّص لساني عند تحسس المكان الفارغ، يجد له وظيفة جديدة، يخرج عدة مليمترات للأمام دون أن أنطق الثاء أو أغيظ أحدًا، تقل ابتساماتي وتزيد تكشيرتي، تصبح ملامحي المقطبة هي شكلي الطبيعي، وأقول لنفسي ونحن نقيم عند عمي:

من الممكن أن توفر هذه السنة الناقصة طحن رغيف بحاله في اليوم، فيوفر ذلك لأبي ثلاثمائة وخمسة وستين رغيفًا في العام.. حسبة سخيفة، لا تختلف كثيرًا عن حسبة الرجل الياباني الذي صنع ساعة تؤخر ثانية كل مئة ألف عام، أو الرجل الهندي الذي تنبأ بنهاية العالم عام ألفين وتسعمائة وتسع وتسعين في اليوم التاسع، من الشهر التاسع، تمام الساعة التاسعة و... أين سيكون هذان المجنونان في ذلك التوقيت؟

تستقر ملامحي على وضع التكشيرة، أخطف نظرة أمام مرآة تسريحة زوجة عمي، أحاول التبسّم، أخاف من ابتسامتي، أُجرِّب دائمًا أن

أضحك، تتجاذب تجاعيدي ملامحي، تحد من انبساط روحي، يُزرّ محيط فمي وتضيق عيني في دوامات جلديّة قاتمة، أتحول إلى رجل عجوز، يرتدي وجهي الطفولي ثوبًا وقورًا يخفي ملامحي الأصليّة وكأنها عورة، اقتضت هذه الأحاسيس تدعيمها بمبررات تبدو سخيفة وغير وجيهة، أنني مثلًا، مخلوقًا للوقار، أو أفضّل الانطواء، وبدأتُ في هذه السن أفكر: «ماذا لو ركبت سنة صناعية؟».

31

أصبح كلّ منّا يعرف ما يجب عليه شراؤه، أبي يحمل يوميًا شنطة خبز ضعف ما كان يشتريه، وجدي يقف في طابور الجمعيّة ليشتري كيلو لحم مُدعَّم، وأنا تُرسلني أمي لشراء الطلبات الخفيفة، كيس ملح أو حزمة نعناع، وفتحي يرمي الزبالة قبل ذهابه إلى مدرسته.

وأصبح كل منّا كذلك يعرف خانته قبل النوم، جدي طلبة ينام بالعرض، حتى ولو كان أول من يدخل الأوضة. نتقرفص، ثم ننام في المكان نفسه.

طوال الوقت، لم يكن يشغلني إلا ما رأيته من أبّهة ومظاهر ترف في شقة عمي الميسور، تفرّجت على التليفزيون الملوّن، رأيت المسلسلات وأفلام الأوسكار ونادي السينما، للمرّة الأولى رأيت بنات يتقصّعن وهن يعلنّ عن منتجات الصابون والشامبو، ورأيت رجالًا نظيفين يمشّطون شعورهم بالفازلين. ادخرت من مصروفي خمس مرات لأشتري هذا الفازلين السحري، تعلمت الوقوف أمام المرآة وشيل مشط دائم في جيبي، أهندم قُصتي وأكوي ملابسي وألمّع حذائي، باختصار، كانت هذه الأيام القليلة تمثل بالنسبة لي انقلابًا في كل شيء، بدءًا من جلوس زوجة

عمي بيننا بقميص نوم مقوّر، مرورًا باستحمام نوال وخروجها ببشكير ملفوف فقط حول ثلثها الأوسط، وانتهاءً بعشاء اللانشون والبسطرمة والجبنة الرومي، كانوا بعد العشاء يسهرون إما على أفلام السهرة أو على صوت المديح الخارج من المسجل العجيب، والذي كان اختراعًا يستحق التأمل، يشتغل الشريط الواحد ألف مرة، وفي كل مرة يُخرج الكلمات والأنغام نفسها، وبالترتيب نفسه.

رأيت في الحمَّام صبَّانة فيها صابونة فوَّاحة، والمواسير عامرة بالمياه دائمًا. أفتح فقط الحنفيَّة أو أقف تحت الدش.

تعلَّمت في شقة عمي الميسور أيضًا أن الإنسان عندما يشتري حذاء، لابد أن يشتريه في علبة كرتون، والعلبة في شنطة، والشنطة مكتوب عليها اسم محل، وبها فاتورة فيها أرقام وخصومات، كانت أشياء خيالية. فواقعي كان يفرض عليّ أشياء أخرى لا تشبه ما تعيشه نوال في شقتها المهندمة النظيفة. لم تكن أمي تشتري لي حذاء بفاتورة، ولا بكرتونة، ولا بشنطة، بل لم تكن تشتري لي حذاءً أصلًا؛ فالأحذية كانت من اختصاص أبي، أمام بائع سرّيح يقف، يفاصل ويناهد، ويسب البائع ويلعن وكأنه لن يبيع، ولكنه في النهاية يبيع، وبأقل من السعر المتوقع، أحذية أغلبها مصنوع بالكامل من بلاستيك أبيض، تُعرِّق قدميّ في عز الشتاء، أما في الصيف فيكفي مشوار واحد ليجعلني مُنفّرًا لكل من يقترب مني، وكأني أجر معي قطّة ميّتة أينما ذهبت. الأحذية الغالية ملونة بالأزرق والأحمر ولها أربطة عريضة، وفي جنبها شريط لاصق. وصفتُ

لأمي كثيرًا هذه الأنواع الجميلة، رسمتها ذات مرة ولم تستوعب ما في خيالي، سحبتُ معي مطراوي صاحبي؛ لترى أمي حذاءه الملون، في اليوم نفسه أخذتْ أمي من فتحي قلمًا أحمر ومِنّي قلمًا أزرق، سهرتْ ليلة بطولها مع كوباية شاي ثقيلة، تخطط لما انتوت، وعندما طلع الصبح وجدتُ صورة مجسمة لحذاء صاحبي، مرسومة بدقة بالقلمين على حذائي الأبيض البلاستيك، الرباط الذي لم يكن موجودًا رسمتْه أمي، حتى الأبزيم بالتوكة من الجنب يبدو من بعيد وكأنه سيجرح من يقترب ويلمسه.

خدّر السرحان الخفيف أوصالي في ليلتي الخامسة عند عمي، فنمت.

32

كنت أهرب كثيرًا من شقَّة عمي لسبب أجهله، أقضي معظم اليوم بالخارج، اخترعت حُجَّة لأمي وصدَّقتْها:

«بحب أصلِّي في المسجد».

زاوية قريبة لا تزيد على حجم غُرفة، أقضي فيها ما بين الظهر والعصر بعد خروجي من المدرسة، أصلّي الفروض وأستمع لدروس الوعظ، لا يبعد ذلك عنّي ما شكّله عقلي الباطن بخصوص نوال، ولذلك كان يجب عليّ أن أخترع شيئًا جديدًا.

الظهر يؤذن قبل دخولي للزاوية، وزملائي المتأخرون عن الصلاة يحتاجون إمامًا، يدفعونني للأمام فأندفع، يتأخر عنّي زميلي نصف شبر، وقبل انتهاء الركعة الأولى يسحبه شخص آخر ويقفان خلفي على بُعد متر، بعد انتهاء الركعة الرابعة أنظر خلفي فيملأني الرعب، صفين يقف فيهم أكثر من عشرين رجلًا وأنا إمامهم، كان يبهرني أن أكون إمامًا لناس أكبر من أبي، اتخذ المسجد في خيالي معنى القيادة، تمنَّيتُ أن أكون شيخًا يعطي دروس الوعظ؛ فالمسألة لا تحتاج مجهودًا كبيرًا، طلاقة

لسان مع ملبس يليق يُدعِّمه حفظ ثلاثة كتب عن ظهر قلب. فكَّرتُ بعد ذلك في ترك الدراسة.

عند عودتي من المدرسة، كنتُ أشق طريقي بين شجرتين صغيرتين بينهما بوّابة حديديّة مُعلّقة فيها قُلل سبيل، أتخطّى المعبر، ألمس جذع الشجرة مرتين، أشعر براحة لا أعرف سببها، أترك على باب المعبر ذنوب اليوم كُلّه، هكذا كنتُ أُهيئ لنفسي، في اليوم التالي أفعل الشيء نفسه، بهذه الطريقة لا يمكث أكبر الذنوب إلا لساعات فقط، بعد اجتيازي للممر كنتُ أرى السماء صافية، أكثر سماحة وسِعة، زُرقتها مبهجة، ويمكن لقُبّتها هضم كل السيئات. بعد تخطّي معبر التوبة كنتُ أرى في نظرات الناس سلامًا وتبسُّمًا، وأرى أن الله الذي يخوفونا منه حليم وطيّب، ساكن فوق السماء برداء لبني وعباءة مشغولة من سحاب أبيض، بعد ذلك، أصبحتُ أستدعيه كثيرًا في أحلامي لكي يلوّنها.

33

وقت الغذاء، جلس أبي في ركن منزوٍ بعيدًا عن الطعام، ثم اقترب قليلًا، أخذ يدحرج بيضة مقلية في الطبق، ثم أزاحه بعيدًا، أكلنا جميعًا كمن نلوك زلطًا، إلّا جدي طلبة، كان يأكل كمن في بيته، تنهرني أمي:

«كُل بأدب. مش شايف أخوك».

وأنظر لأخي، لم يكن يأكل بأدب، بل لم يكن يأكل أصلًا.

زوجة عمّي غائبة عن دائرة الطبليّة، عملت أمّي الشاي، وقبل أن تفرغ الأكواب تدخل زوجة عمي:

«لقيت لكم أوضه»

تقول قبل أن تجلس، يضع أبي كوباية الشاي قبل أن تفرغ، ينصت للكلام بشغف، وتُكمِل زوجة عمّي:

«ومش بعيدة».

ويسأل أبي:

«بكام؟».

تُعلِّق زوجة عمِّي طرحتها وتبقى بشال قصير فوق رأسها:

«بتسعة جنيه في الشهر».

يُنزِل جدِّي طلبة كوبه بعد أن تسحَّب الثفل على حوافه:

«بحالهم؟».

تزغر زوجة عمِّي لجدي وتنصرف. يقصد أبي الكنبة الجالس عليها عمِّي، يسأله:

«إيه رأيك يا ابو نوال؟».

ويرد عمِّي:

«مش بطَّالة».

تظهر زوجة عمي في المشهد من جديد، تُشير إلى عمي فيترك المجلس ويختفي معها لدقائق، ثم يعود ويقترح:

«على فكرة الأوضه لُقطة. بمنافعها. بحري وفي الدور التالت. بتبص على جامع وطابونة. أنا رأيي اتكل على الله».

وتقول أمي:

«هنتْكِل يا اخويا. هنتْكِل كُلِّنا إن شاء الله. خير».

يُصلح فتحي شبشبه بِإبرة كبيرة معقوفة ويقول:

«مش نبص عليها الأوِّل».

كلّهم انشغلوا بالأوضة، وما شغلني أنا أنّنا سنترك الشقَّة التي تسكنها نوال، لا يعنيني عمي ولا زوجته، انتقالنا يهدد كل الخطط التي دبَّرتها، آلاف الأشياء الصغيرة كانت تتضارب في خيالي، لا أعرف ماذا تعني «نوال» بالنسبة لي، وماذا يعني ابتعادي عنها ولو لمسافة شارع واحد؟

أعدتُ تدوير الحوار في رأسي مرة أخرى، هل قالت زوجة عمي «لقيت لكم أوضة»؛ لكي تساعدنا أم لكي نحلّ عنهم؟

تركتهم يتفاوضون ويحسبون الحسابات، وخرجتُ.. كانت الشمس تميل للمغيب تلوِّن الشارع الصغير بصُفرَّة قابضة، قادتني قدماي إلى المسجد، زاويتي الصغيرة، لَكَم اشتقت أن أُصبح إمامًا الآن، خلعت نَعْليَّ ودخلت، لم أجد في المسجد أحدًا؛ فميعاد صلاة العصر فات، والمغرب لم يؤذن بعد.

34

فوق الكليم نمنا في غرفة الكراكيب، ولكن ليس ككل الليالي، أمِّي مستيقظة تكلم أبي، وفتحي يحاول إثبات أنه كبير يمكن أخذ رأيه، قالت أمي:

«هُما شكلهم زهقوا مننا».

«حقهم برضه يا عيشه. مفيش أتقل من بني آدم».

ردَّ وهو يضع ذراعه على عينيه كمن يستعد جديًّا للنوم.

«طيب والعمل يا أخويا؟».

سألتْ، فرفع أبي ذراعه من على عينيه وثنى جذعه استعدادًا للقعاد، اعتدل على الكليم وبدأ يشرح لأمِّي:

«أنا قدِّمت على سكن انتقالي من كام يوم. سلِّمت لهم صورة البطاقة وجواب من الشغل. بيقولوا فيه ناس كان حالهم زي حالنا، قعدوا شويَّة في الدويقة.. وبعدين استلموا شقق حلوة أوي».

ويسأل فتحي:

«ودي فين الدويقة دي؟».

ويجيبه جدي الذي استعصى عليه النوم:

«في آخر بلاد المسلمين».

تقول أمي، والنعاس بادٍ على ملامحها:

«يعني مش هناخد الأوضة؟».

ويجيب:

«الصبر شويَّة».

ونصبر لأيام طويلة، كان الشيء الوحيد الجميل في هذه الهدنة هو بقائي بجوار نوال، كنتُ أستمتع عندما تحكي لي الأفلام أو تعطيني شويَّة لب. مع مرور الوقت، أصبحتْ المسافة بيننا تسمح بلعب الكوتشينة، أدخل الحمَّام مع طيفها واستكشف تفاصيل جسدي عن طريق الخيال، وكانت المرَّة الأولى التي تجتاح كياني حُمى، سخونة وصهد، ثم يخرج منّي سائل غامض، ممتع، لا أفهمه.

35

في يوم إقامتنا الأخير عند عمي جاء أبي من شُغله مبسوطًا، يكاد يرقص من فرط السعادة، رفع ورقة في وجه أمي، كانت تجلس وأمامها طست غسيل، نشّفت يدها في هدومها وأمسكتِ الورقة، قلّبتها من كل الاتجاهات، لم يستطع أبي الانتظار حتى يَحُبُك المفاجأة، قال وهو يحاول السيطرة على ابتسامة انفلتت:

«عقد إيواء».

ترد عليه وتخبط صدرها بكفها المبلول:

«إيواء! هوَّ احنا شحَّاتين يا راجل؟».

يضحك حتى تبان أسنانه قبل أن يقول:

«يا وليّه شحاتين إيه؟ إيواء يعني سكن مؤقت يا عيشه، لغاية لمّا الحكومة تدبّر لنا شقة».

تبدو على ملامحها معالم من تعثّر عليه الفهم، تركّز النظر على وجه أبي وتقول:

«يعني حنمشي من هنا؟».

«حنمشي طبعًا يا عيشه».

«ودا حلو يا اخويا الإيواء ده؟».

«العقد مكتوب فيه كشـك. بس لما سألت قالوا إنه كبير أوي. وييجي أد أوضتين. لمّي الحاجة على ما أجيب عربيّة».

دون تفكيـر طويـل عادت أمي للطسـت الذي كانت تطوقه بسـاقيها، عصرت ما كان فيه من غسيل ووضعته في دلو أمامها، وببهجة من سيُخلّد في الجنة رفعت حاجبيها وتأمّلتِ السـقف. ربتت على كتف زوجة عمي برقّة وقالت:

«والنبي تنشري دول يا أم نوال. عشان أنا هلم الحاجة».

ودون انتظـار رد حوّلـت أمي جلابية قديمة إلى بقجـة، ربطت كميها ودست فيها كل ما تستطيع من ملابس وبعض نعال.

تبدد عفشـنا بسـبب النقـل وسـوء التخزين، خشـب الـدولاب ومُلّة السـرير شـققته الرطوبة ونخره السـوس، والمراتب تكوَّم قطنها في ركن واحد، والحُصر تكسَّرتْ عيدانها، وضاعت غطيان الحلل.

تمسَّك بنا عمّي كثيرا:

«حتقطعوا فينا يا شيخ. والله الواحد اتعود على وجودكم».

قـال لأبـي وهو ينقل ما يسـتطيع، يضعـه على عربـة كارو كبيرة يقف بجوارها بغل، تكوّمت بقج ملابسـنا ونعالنا وبعض أكواب، كهرم مدرج وضعنا المنقولات. في الصالة سألتُ أمي:

«طيب والهدوم اللي لسّة منشفتش. حنسيبها؟».

لم ترد، نظرت إليّ نظرة تُعبّر عن أحاسيس كثيرة متضاربة. ثم قالت:

«دي مش هدومنا يا حبيبي».

تترك أمّي الغسـيل، تقرفص فوق عربة كارو تفـوح منها رائحة بصل، أجلـس بجـوار العربجي، يعلّـق العريش علـى جنبي البغـل، أمامي ذيل طويل يغطي مؤخرته، ظهره منبسـط وأذناه تتحـركان بظل أكبر يهتز على الأرض. صفرة الشمس بالكاد تلوّن الأرض، يقف البغل في مكان مشمس وتتمترس قوائمه، يتبول، أتذكّر رائحة المصرف الذي عشـت على شـطّه ثماني سـنوات وتركته منذ شهرين. بخشبة غليظة ضربه العربجي فرمح، كدنا نتقلب فور دوران العجلات.

خرجتُ من عزبة العقاد، تركت المدرسـة الابتدائية، سألتحق بأخرى إعداديـة، وتبـدأ رحلـة جديـدة في البحـث عن أصدقـاء جدد يناسـبون المرحلة. العربة الكارو تشق طريقها، تتجه حيث لا أعرف.

جلس جدي طلبة بين البقج، وقبل أن تتحرك العربة نام، جلست أمي بجـواره، وفي حجرها ترقـد قطة أنس، وأنس جالـس بيننا كملك متوّج، رشـقت أمي كرسـيه في منتصف العربة، وولّت وجهه في اتجاه الطريق، أمـا فتحي فكان يحمل شـنطة كتب على حجره، وأبي شـارد وتائه، ربما يفكـر فـي أمر واحـد، أين تقع هذه المنطقـة التي هو ذاهـب إليها بعياله؟ المسلّة، وجّه سـؤاله للعربجي الذي كان يسحب نفس دخان بشراهة من سيجارة:

«أنت عارف الطريق يا ريّس؟».

«بعون الله».

رد الرجـل وهـو على حاله الجهيـم. كانت الأرض تتحـرك ببطء من تحت العربة، والعجلات تطلع فوق زلط ومطبات وقمامة، أخذ أبي على حِجـره بروازا فيه صورته، صورة ظلت معلقة في صالة البيت القديم منذ إنشـائه، ترحب ابتسـامته بالزائرين، يقف مشـدود الصدر، يتباهى بالبدلة الميـري، ويضـع إبهامه في طـرف القايـش، والبيريه معوج علـى ناحية، وأسـفلها اسـمه مزخرف وبجواره بياناته.. جندي مجند بطل.. ثم تاريخ التصوير.. 1974.

كان أبي ضمن الفرقة السادسـة والعشـرين مشـاه ميكانيكا في حرب أكتوبر، حوصر في ثغرة «الدفرسـوار»، قال إنه هو الذي أرشـد عن مكان إريل شـارون أيام أن كان جنـرالًا، رآه قبل أن يهرب في اللحظة الأخيرة، عن طريق فرقة كوماندوز إسـرائيلية مجهزة هبطت من السـماء، اختطفته كصقر وطارت، حكى لي عن صعوبة أيام الحرب، كيف أكل قشر برتقال لـم يزل يحتفظ بلعاب جنود إسـرائيليين، في أحد مسـاءات أيام الحرب علّـق بندقيته الروسـية فـي رقبته وطار، ركـض حيث لا يعـرف إلى أين. أخـذ يبتعد عن صوت طائـرة، كانت تطن فوقه بأمتار قليلة، يسـتقر قُرب دشـمة لا يعـرف لأي فريق تتبع، يسـمع صوتًـا مدويًا خلفه، تسـقط دانة كبيـرة بجـواره ولا تنفجـر، يواصل أبـي الركض. يجري حتـى يرى ماء، ظنّه سـرابًا في بادئ الأمر، تأكد من أنه ليس إلّا ماء حقيقيًا عندما قفز في

بِركة صغيرة ببندقيته. بعد دقائق، جاءت فرقة مشـاة إسـرائيلية وعسكرت بالقـرب منـه، اتخذت من شـاطيء البِركة مسـتقرًا، كان رأس أبي هو كل كيانه، لا يشـعر إلا به، تحوَّل كله إلى رأس حي يحمل جسـدًا شـبه ميت، أصبح أمامه اختياران أحلاهما مُر، اختياران يحملانه بسرعة الضوء ليعود للبدايات البعيدة، فإما أن يغرق بسـلاحه الذي أصبح قطعة حديد صدئ، وإمـا أن يخـرج إليهم وتجعلـه طلقاتهم كما المصفـاة. امتنع عن التنفس مـن الفم، لا تظهـر منه إلا فتحتا أنف يشـم بهما الحياة التـي كان وهجها يخفـت وبريقها يتنـازل عن اللمعان في كل دقيقة تمـر، ظل كما هو حتى قارب أن يبوش فيصبح ماء يسـير مع المـاء، ليلة كاملة ونصف نهار وهو علـى هذه الحـال، ملّت فرقة المشـاة من الجلوس على شـاطيء البِركة، فقررتِ الرحيل، خرج أبي ينتفض من البرد، يتحسـس جسده ولا يصدق أنه لا يزال حيًا.

لم يمل من حكي هذه الواقعة لي، ولكني مللت سماعها.

أبي لا يزال سـاندًا طرف ذقنه على البـرواز، والعربجي يضرب البغل فتتهـوّر قوائمه ويرمح، تتأرجح العربة وتميل، تمسـك أمي طرف البقجة الكبيـرة بيـد، وبيدهـا الأخرى تسـند كرسـي أنـس المتحـرّك، قطة أنس فـي حجرهـا نائمة، وأبـي يحضن بروازه العسـكري، وجـدّي طلبة يغفو ويسـتيقظ فـي الدقيقة الواحدة أكثر من مرَّة، أمسِـكه من قبـة جلبابه لكي لا يسقط من فوق العفش. ملابس أبي مغبّرة وشعره مشوَّش، نظرته تائهة وملامحـه عصيّة علـى الفهم، وأمي تلبـس جلابية «بيكة» فيهـا من البقع

والغبار أكثر مما فيها من ألوان، تُقمّط رأسها بإيشارب قصير وتوازن على كتفيها طرحة سوداء، تلبس حذاءً أسود بلاستيك، وأثر العرق والتراب صنع خطًّا رماديًّا عند كاحلها، يجلس فتحي شاردًا، تبان رجله من كوتشي متهتك الأجناب معقود الرباط بشكل دائم، ولونه الذي كان أبيض أصبح بلون الأرض. أمّا جدّي طلبة فأراحني من تأمله ونام مرة أخرى.

36

توقّف العربة بعد مشوار قصير، يقول صاحب البغل:

«حمد الله ع السلامة يا جماعة».

جُملة العربجي تعني أننا وصلنا بالفعل، ولكن أين الأكشاك؟

أمامنا مطلع، وبعده مساحة منخفضة كثيرًا، تتساوى أقدامنا مع سطح الدور الثالث إذا ما قارنّاها بالمنحدر. أقترِبُ قليلًا، أرى في آخر المطلع حفرة واسعة، كبركة صغيرة على وشك أن تجف، فيها مياة راكدة بعمق ذراع. أقتربُ أكثر، ألمح مجموعة من أكشاك متساوية نائمة في منزلق، مرصوصة على جانبي الحفرة، كدودة كبيرة نائمة، أربعة صفوف في كل صف عشرة مخابىء، يسمّيها السكّان أكشاكًا، على كل كشك رقم واضح ومكتوب ببوية حمراء.

الإيواء مصنوع بالكامل من الصاج المعرّج، وسقفه قديم تنخره الرطوبة ويفتته الصدأ، وأمام كل إيواء باب متهالك لا يطابق الحلق، معمول من خشب وصفيح، ومزيّن بأطباق ألومنيوم صغيرة مدقوقة ببرشام، وأمام الباب أحجار مفدوغة وبقايا طوار مهشم، الأكشاك مرصوصة بشكل شبه دائري، يُسيّج البركة الصغيرة العطنة. الأكشاك

تنسدل على أبوابها ستائر لا تستر شيئًا. وعيال صغار يتقافزون في البركة، بعضهم بالملابس الداخليَّة، والبعض الآخر عرايا، يلفُّون حول الماء الراكد، ويطاردون كلبًا.

أرى امرأة من السكّان الجدد الذين سبقونا للسكن الجديد، بدينة، ثقيلة العجيزة، تمسك في يدها سكينًا، وفي الأخرى ديكًا، تجز رقبته بعنف، تفصلها عن جسده المرتعش وريشه الملون، يخرج من عنقه خرطوم صغير يرش الدم، يتخبَّط الديك في دمه قرب البركة. أبتعدُ بما أحمل عن المرأة وديكها. يستريح جدي طلبة فوق أقرب حجر، يقرفص ويفتح ساقيه كمن يستعد للتبول، يقفز فجأة من مكانه، يقطع سرحانه عندما يرى كلبًا عجوزًا مقطوع الذيل منتوف الشعر ينبح بالقرب منه.

أجرجر قدميَّ من الإجهاد، أكنس بحذائي الشارع، شعرتُ للحظة، أني ميت، وأن من يحمل العفش إلى داخل كشك الإيواء شخصًا آخر لا أعرفه، ثم شعرت بأني متخدِّر أحلم بالنعاس، أجاهد لكي أخرج من حالة نوم قصيرة.

يُخرج أبي العقد من جيبه، يتأكّد من الرقم (13).. تتوقّف العربة، يشعل العربجى سيجارة جديدة وينتظر، ننزل جميعًا ونُنزِّل عفشنا، يبحث كل منّا عن شيء يحمله.

يقترب أبي من الكشك، يخرج المفتاح الذي استلمه من المحافظة، ينفتح القفل من تلقاء نفسه بمجرّد لمسه، يتوارب الباب الصاج، ندخل لتفقُّد مسكننا الجديد، نقف في منتصف الكشك، تهبّ رائحة عطانة،

ودوامات غبار تلف المساحة الصغيرة، لمبات الإنارة نصفها مخلوع، ونصفها محروق، تتدلّى الأسلاك بأطراف مقشّرة خطرة، وبلاط الأرضيَّة مونته كالتراب، يرقص تحت أقدامنا، الكشك مدهون بجير أزرق، يختم اللون كل من يقترب.

في الكشك نافذة واحدة لا يزيد طولها على شبر وعرضها ثلاثة، سلخة مستطيلة، تسمح بدخول ضوء في حالة احتضار دائم، معلّق على الفتحة سلك ناموس متهتك، وعلى ثقوبه نسيج عنكبوت مغبّر، فوق حوافه تتجوَّل حشرات مِشكّلة. الشبّاك منفذ إضاءة وحيد لا يضيء، بعض كسور في زوايا السقف تُدخل نورًا شحيحًا عند غلق الباب الصاج. الشبّاك الوحيد يطل على أرض مندّاة بلزوجة دائمة، تسحّ بقايا بول يأتي من الكشك المجاور، وأرى الجار الجديد، رجلًا عجوزًا ونحيفًا، يتخلّص من قطراته المحبوسة بين كُشكه وكُشكنا، يتلفّت العجوز قبل أن يعملها، وأسأل نفسي: هل يشك الرجل بأن شخصًا ما على الأقل لا بد سيراه؟

خلف الأكشاك تقع مزرعة كبيرة، حولها سور من سلك شائك، وعلى حوافها مداخن رؤوسها مشتعلة دائمًا، ودخانها أسود. خلف كشكنا هضبة مدوّرة محدودة، أمامها بوابة كبيرة خضراء، فيها تنتصب شواهد مقابر قليلة، من حولها أشجار قصيرة وعشب جاف. وبين الأكشاك فتحات في حدود شبر لدخول وخروج الفئران.

الأكشاك تتوسطها قبة مسجد صغيرة بالكاد تُرى، حولها عمدان نور صدئة لا تنير، ونجيلة تسيّج البركة التي يرعى فيها بط وأوز وغنمات

قليلـة لا يتابعهـا أحد. يظهر على بُعـد قليل من البركـة درج حجري كأنه بقايا مدينة زائلة أو حطام حضارة فتتتها العهود. أرى عيالًا يعبثون في ماء أخضـر ثقيل، يقذفون البط بالحصى، يُرهبون الغنم بتقليد المأمأة وطلوع اللسان.

أرفـع البقجة الأكبر، يشـيل أبي صُرّة تليها حجمًـا، ويرفع جدّي فوق رأسـه حلّـة كبيـرة، فيهـا حلل صغيـرة وأكـواب، و يحمل فتحـي حصرًا مبرومة مدسوسة في بعضها.

بـدا علـى أبي الضيق بشـكل مفاجئ، وبدا على جـدي طلبة الإرهاق فمارس دور الكبير، أخذ يشير إلى بعض المنقولات:

«هات دي هنا. حط دي هناك».

تسـمع له أمـي، تقول «حاضـر»، ولكنها تضـع ما تريد فـي أي مكان تريـد، يتابع رصّ العفش، بعد أن يرى الأشـياء توضـع في مكان معاكس لما اقترح، يقول بنبرة المنتصرين:

«مانا كنت هقول كده برضه».

أسـمعهم يتكلمون، تتكسَّـر أصواتهم، قبل أن تصل إليّ، أشـعر بأنّي لسـتُ هنا لأسـتقر، ولكـن لأكمل ما بدأه أبـي في حياته من شـقاء، أُعيد الكرّة من أول وجديد، ولكن في زمن مختلف.

بعد نقل عفشـنا بيوم كانت عائلة أخرى تنقل عفشـها، تهدّم بيتهم في عرب المحمدي من تلقاء نفسـه وليـس بفعل فاعل كما هو الحال عندنا،

الكشك رقم 12 المجاور لنا، استلم مفتاحه موظف يبدو في حاله، عرفت أن اسـمه الأستاذ عبدالشافي سـعيد، رجل قليل الكلام، أقام في الكشك مـع زوجته، وله ابنة وحيدة عرفت أن اسـمها سـعاد، كانـت تنقل العفش بعزم قوي، تنحني فوق المرتبة وترفعها على مرَّة واحدة، يساعدها طولها المتناسق وعرضها المعقول.

أضاف لنا الكشـك وجود كهرباء، وأخذ منّا شـيئا أهـم، دورة المياه، الأربعـون كشـكًا لهـم دورة ميـاه جماعية، تبعد عـن الكشـك مائتي متر تقريبا. أخمِّن زنقتي وأذهب مقدمًا كتصرّف وقائي، ربما أجد شيئًا أفرغه من معدتي، أحيانًا أشعر بحاجة وهميّة، تتلاشى الانقباضات عندما أصل للبـاب. جـدي طلبة يعاني من بُعد دورة المياه، لا يفعل شـيئًا طوال اليوم سـوى الذهـاب والمجيء بيـن الكشـك ودورة الميـاه، أصبحت ملامحه معروفة لأغلب سكّان الأكشاك.

علَّـق أبـي الكلوب أبـو رتينة في مسـمار، لـم نعد نسـتخدمه إلا عند انقطـاع التيـار الكهربـي، اشـترينا ثلاّجـة إيديال بالتقسـيط، رشّـت أمي مدخل الكشـك بالملح والحبّة السـوداء يوم اسـتلامها، حرص أبي على اختصار الوقت الذي ستنكشف فيه كرتونة الثلاّجة وهي داخلة للكشك، أصبحـتُ أملأ كل الزجاجـات من دورة المياه البعيـدة مرتين على الأقل كل يوم، وأحيانًا ثلاث. وأمي لـم تعد تضطر إلى سـلق اللحم ووضعه في الدهن، أصبح كل ما عليها أن ترفع الأطباق والحلل وتضعها كما هي على الأرفف الإسـتنلس، والبيض لـم يعد في حاجـة لدفنه في صفيحة الدقيق

أو دفسه في غابات القش، تحوَّل التخزين إلى حاجة مُلِحَّة، تضاعفت المشاجرات اليومية بين أمي وأبي بسبب مصروف البيت، أصبح يترك الكشك كثيرًا ولا يعود إلاَّ في وقت متأخر.

يحرص أبي على اصطحابي لأصلّي معه الجمعة في ساحة ارتجاليّة صغيرة بين الأكشاك، يعتلي الخطيب منبره وينام أبي، أنشغل أنا في هش الذباب عن وجهي وأصابع قدميّ، يندمج الخطيب في التحذير والنذير، وأتابع أنا المنظر بالخارج، يطل المسجد على البركة الصغيرة، يلعب حولها العيال الكفرة الذين لا يُصلّون الجمعة، أتابعهم من شبّاك حديد بجوار الميضأة وهم منشغلون بأشياء لذيذة مسلية، يستخرجون من الماء سمكًا بلطيًا صغيرًا بسنانير عمولة، من خوص جريد ودوبارة، يستخرجون طُعمًا من تل طمي قريب من المقابر، يلقون في الماء بفئران ميتة وأقفاص جريد وفِرد شباشب هالكة.

نخرج من المسجد الصغير مسرعين، يتدافع الناس عند الخروج من الباب وهم من دخلوه كسالى.

أترك يد أبي وأجري، أذهب إلى العيال الذين يلعبون، ألمح أبي يُدوِّر مسبحة بين أصابعه وينادي عليّ..

37

كان الكشك الواحد في حدود خمسة عشر مترًا مربعًا، مستطيل كقطعة دومينو، من المفترض أن تستوعب هذه المساحة خمسة أنفاس على الأقل، وتستوعب أيضًا بوتاجاز، ثلاجة، مروحة، سريرين، كنبة، ترابيزة، كتبًا، حللًا، أكوابًا، شهيقًا، زفيرًا، شهيقًا، زفيرًا..

في بيتنا القديم المبني أي كلام كان جدي طلبة يجلس في أي مكان شاء، فالأرض أرض حكومة، والحكومة أرضها واسعة، وعند عمي الميسور كان ينام قريبًا منّي لدرجة تُمكنّي من عد أنفاسه، أما في السكن الانتقالي فقد تحدد كل شيء، رتبنا حياتنا الجديدة.

منذ وصولنا، نظَّمتْ أمي المكان بقدر كبير من الحكمة، وضعت في المدخل كنبة واحدة وبعض الكراكيب بسبب ضيق المكان. أصبح لجدي طلبة مكان واحد بعد أن فرشت له أمي مرتبة، يقل طولها عن مترين و لا يزيد عرضها على متر، وضعتها تحت سريري.

ظل جدي ينام تحت سريري ليالٍ طويلة، كنتُ أحيانًا أرفع الملاءة وأجلس معه في صندوقه الصغير، رائحة محل إقامته كانت مميزة، لا هي منفرة وكريهة ولا هي معطَّرة وذكية، تراكم مكونات مختلطة، بقايا طعام،

بقايا عرق وبول، دخان معطَّن متداخل مع رائحة خشبية مميزة. نام جدي على الكنبة لسنوات طويلة، كان يقع أحيانًا ويرتطم وجهه بالأرض، فضّل بعد ذلك أن ينام في البراح بجوار السرير، يكح طوال الليل؛ لذلك اخترعتْ له أمي هذه المنامة التي أراحته أكثر من رقدته في الطل، أتأكد أنه راح في النوم، عندما تنتظم أنفاسه.

يدخل جدي لقُمقمه فقط عند النوم، تزيد المدة التي يجلس فيها وحيدًا، حتى أصبح وجوده تحت السرير هو القاعدة، أحيانًا يصادف نزولي من على السرير خروجه من تحته، يصطدم بي فيسبني ويلعنني، أصالحه بسيجارة كليوباترا وقطعة هريسة لا تحتاج لما فقده من أسنان وضروس.

تتلاحق أنفاسه، فكُّه يتحرك بطعام وبغير طعام، يده ترتعش دائمًا، يزداد رقصها مع مرور الزمن. أصبحنا ننسى جدي طلبة تحت السرير، تمر لحظات أتخيَّل فيها أنه مات، وأن منامته تحت سريري قبر يتخفّى في صورة مرتبة من قطن أسود، الملاءة التي تحجبه عن الزائرين تعلو عن الأرض نصف شبر، شريحة خَطّية صغيرة من النور، تُمكّنه من الفُرجة على التليفزيون ورؤية الأقدام النائمة في الصنادل والشباشب، أصبحتِ الأحذية بديلة عن الملامح، يُفرّق جدي بين كل مَن في الكشك عن طريق أقدامهم، حتى الندوب والإصابات التي لم يكن صاحب القدم الوافدة يعرفها في قدمه. كان جدي طلبة يحفظها ويُعلّم بها أصحابها.

في اليوم الواحد أذهب مرتين أو ثلاثًا إلى دورة المياه الجماعية، لم تستوعب الأكشاك مواسير للمياه ولا شبكة للمجاري، فوق أسقفها نصف الدائرية أسلاك عشوائية لتيار كهربي يفصل أكثر مما يعمل، دورة المياه مشتركة، ست غرف، يفصلها قَطوع مرشوق فيه ست حنفيات، من تحتها حوض كبير تملؤه المياه ويقفز فيه العيال، يخدم المبنى البعيد أربعين كشكًا، يسكنها أكثر من ثلاثمائة نفس، غرف دورة المياه الجماعية ضيقة، أغلب بلاطها مخلوع، في كل غرفة جانبية فتحة تعلو شبرًا عن مستوى الأرض تكفي دخول يد، محشور فيها دائمًا لفافة من ورق الجرائد.

بدأت أيام الصيف وبدأت معها معاناتنا، تكاد أن تُشوَى جلودنا تحت سقف يسخن كصاجة الفرن، يتفوق في امتصاص الحرارة وتسريبها إلينا، هواء المروحة ساخن، الذباب ساكن ومستسلم للموت البطيء، أقطع المسافة بين دورة المياه الجماعية والكشك، أنزل بملابسي الداخلية تحت الحنفية، أخرج، فيعود العرق من جديد، بعد طابور طويل من الانتظار والفوطة فوق كتفي والصابونة باشت بين أصابعي، بعد صبر طويل تجف المياه فور خروجي مباشرة، تحت رذاذ القطرات أنتعش، أستسلم، يأخذني الخدر حيث لا أرى إلا ما أتمناه، الناس من حولي يتركون أجسادهم المستغيثة من الحر لتستمتع، يخرجون رغم البؤس وهم يدندنون بمقاطع مختلفة ومتنوعة من أغاني الموضة:

«في السكة شفت اتنين.. سلامات يا حبيبنا يا بلديات.. توهان عالم مليان دخان.»

تقابلني المسلة الفرعونية المشهورة وأنا خارج، واقفة، شامخة، مبهمة على نحو ما بنقوشها ورسوماتها الغريبة، أمرُّ عليها وأنا أتخيل صانعيها وأسأل:

هل حقًّا كان المصريون القدماء عظماءَ؟

هل حقًّا نحن أبناؤهم؟

38

سعاد تملأ الجراكن وزجاجات المياه من دورة المياه المجمّعة، أذهب معها في اليوم مرّتين، أُفرغ مثانتي وأملأ الزجاجات، أنتظر بالخارج حتّى يقضي مَنْ بالداخل حاجاتهم، ثم أنتظر خروج سعاد وأعود معها للأكشاك.

انسجمتِ العلاقة بين سعاد وأمي، وصلت إلى تبادل أطباق الطبيخ وقِطَع الزفر الشحيح. كنتُ كلّما رأيتها أفكِّر في شيء واحد، سنّتي التي فقدْتها، تسبَّبتْ في تكشيرتي المستمرَّة؛ خصوصًا عند الغضب، العاهة أول ما يغري نظر الآخرين. لا بد سأحتاج للابتسام في مراحل كثيرة قادمة. يبدأ العد التصاعدي لإحساس الرجولة، تنهشني رغبة غامضة في التجاوب مع العيون الناعسة التي تحتاج للتبسّم وهي تُطرق للأرض. في هذه الأثناء تُقدّم لي «سعاد» هدية في عيد ميلادي، نموذج مُصغّر لمصحف به لمبة مضيئة زرقاء.

كانت سعاد في السابعة عشرة، وأنا في طريقي لتجاوز الثانية عشرة، الفرق بيننا خمس سنوات لصالحها، قالت ذات مرَّة إنها فقط أربع سنوات، الحسم في هذا الأمر يحتاج إلى ربط تواريخ أعياد ميلاد بتواريخ

زواج أو عزاء أو كسر ساق أحد الأقارب، ربما يُحسم بفترة ولاية جديدة للرئيس الأمريكي، فرق سنة ليس هو الموضوع، ولكن الموضوع شيء أهم من ذلك.

عرفت عن طريقها متعة جديدة، رؤية ملامح محددة في أحلامي، قبل ذلك كنت أرى الأحلام باهتة، لا أنثى معيّنة تأخذ بيدي وتُعينني على خوض مغامرات الخيال المثيرة، أشتهي منْ أشاء دون الغوص في أي تفاصيل. بعد أن رأيت سعاد وتمكنت من تحديد ملامحها أصبحت الأحلام أكثر وضوحا ولذّة، أرسم طيفها على المخدّة الطويلة، أراها منقوشة على المرتبة كلّها بالحجم الطبيعي.

أصبح رأسي محشوّا بأفكار مشوّشة عن علاقة الذكر بالأنثى، أي ذكر، وأي أنثى، متاهة تختلط فيها المشاهد اليومية بالخيالات والأحلام، تصنع الخلطة لهاثًا محمومًا نحو تمنّي فعل شيء غامض لا أدري كيف أفعله، أو متى أفعله، أو مع من أفعله. عندما أُغمضُ عينيَّ، وأسبح أرى سعاد تقفز خفيفة، لا تؤثر فيها جاذبيّة، أشبك أصابعي في كفها الكبير، نطير معا، كعصفورين، أو بالأدق، كعصفور وحمامة، لا يضغطنا هواء ولا تشدنا أرض، ننفد من ثقوب إسفنجيّة، طيفيّة، نقفز فوق أماكن تشبه ما أعرفها، بيوت صغيرة ناعمة الأسطح دخانيّة الألوان، تتحرك بانسيابية، كماء يسير بين الماء.

أراها وهي تنشر الملابس خلف كُشكنا، تفعل حركات جريئة لا يعرفها الواقع، يتحوَّل الكون إلى عطش مستمر ورغبة محمومة في

إخراج عنصر غامض يسكنني، وكأنه الجن، أجاهد ليخرج، أصحو من نومي على صوت أمي، تنظر إليّ وبشفتيها معلقة ابتسامة، مطمئنة وحانية، تسألني عندما أحاول أن أخفي البلل الذي يبقع بنطلوني في نظرة خاطفة وسريعة:

«كان معاك حد في الحلم؟».

يراقب أبي كلماتها، يقول:

«غيّر ريقك الأول قبل ما تشرب ميّه».

39

أستيقظ، أشعر بوجع في كتفي وخدر في عمودي الفقري، ورغبة مُلحّة في التعرّض لهواء نقي، يختلط مشهدها في الحلم مع مشاهد أخرى. دسّت سعاد مجلة إعلانات أجنبية عارية في الكشك، ثم انتظرت رد فعلي، كيف سأتصرّف عند الفرجة على كل هذه الأجساد المكشوفة. نساء بيض يتركن أجسادهن الشمعيّة العارية لأصابع رجال أشداء، وفي الخلفية إعلان عن أحد أنواع اللوف الطبي، تضعها امرأة نافرة الصدر بين ساقيها، وتعطي مؤخرتها للمتصفحين.

ترتبك علاقتي بها عندما أقلّب صفحات المجلّة، أنا في بداية المراهقة وهي في ذروتها، تتجاوب وتلين مع تغيراتي السريعة، تراوغ مشاعري عن طريق كلمة مفاجئة أو لمسة ناعمة، تفرك عنقي، تهز حركاتها أوتارًا خفيّة، وتُحدث خدرًا ورعشة، يفكك تماسك أفكاري المشوّشة، أصِل لحالة أقرب لمن يسير وهو نائم، أرتفع عن الأرض سنتيمترات قليلة، أصبح خفيفًا، لا تؤثر فيّ الجاذبية الأرضية.

بعد أيّام قليلة من استلام الأكشاك، تدخل سعاد سريعًا في علاقة حميمة مع أمي العشريّة، تعطيني طبق طبيخ فأسلّمه لجارتنا مدخّنا بناره،

تشكرني سعاد بابتسامة تصبح مع مرور الوقت عنوان الأنوثة في مخيلتي. في اليوم التالي أذهب لأسترد الطبق، فلا تمد سعاد يدها به فارغًا، دائمًا فيه طبيخ، ونادرًا مُدعّمًا بقطعة لحم أو ورك فرخة أو سمكتين في قعر صينيّة فرن، أحمله من كشك وأذهب به إلى كشك.

أنتظر وقت الغداء، تضغط تلميحاتها على عباءة الطفولة بداخلي وتجبرني على خلعها، تقسو في الضغط عليها لتحل مكانها عباءة أخرى، واسعة وفضفاضة، تتمدد بداخلي عناصر جديدة، أمط عباءة الرجولة الجديدة لتصبح على مقاسي، أفشل في التوفيق بين الرداءين، أسبح في متاهة لا أول لها ولا آخر. أعطيها الطبق فتسحبه وتضغط بأصابعها على أصابعي، تحك أظافرها وتخربش كفي، فأنقذ الطبق قبل أن يندلق. ترفع يدها، جلبابها مقطوع من تحت إبطها، أرى شعرًا أسود كثيفًا، أبتعد عنها قليلًا، هل ينمو للبنات شعر في أماكن أخرى غير رؤوسهم؟

كانت أمّي تدعوها يوم الجمعة من كل أسبوع؛ لتساعدها في توليفة المحشي، باذنجان، فلفل، كوسة، ورق عنب، تجلس سعاد على كرسي خشبي قصير وتبدأ في التقوير، كنتُ أنظر إليها على أنها جبل لا يمكنني صعوده، وفرس لا أملك القدرة على امتطائه، اختلطت أحاسيسي بين الطفولة والرجولة، كدت لا أشعر بأي منهما. تتعمّد سعاد أن تظهر جزءا من سمانتها الشمعية وهي جالسة على الكرسي الخشبي القصير، يضرب الوهج نافوخي ويسخن رأسي، لكنه لا يفضي إلى شيء عملي، كانت تخط الكحل فيحدد الدنيا الواسعة في عينيها. تنهمك في تفريغ الباذنجان من لبابته، يهتز نهداها القويان المتماسكان، مثل رمانتين، ينطلقان كمدفع

له مهمّة واحدة، تخدير بدني الهش وثقب ثغرات ينفد منها هجوم ناعم على خيالي العشوائي الضعيف.

كانت أمّي تُحدّثها في موضوع لا يهمني، ولكنه أثارني على نحو ما، تركها خطيبها بعد أن أقنعها بأن ترتدي أمامه قميص نوم أحمر بكرانيش وتخاريم، طلب منها أن تلبسه على اللحم لكي يتأكد من مقاسها، أو لأنه يريد أن يعمل بروفة لليلة الدخلة، ربما ليس لهذا ولا ذاك ولكنها فعلت، تبرّعت أمي الطيّبة بكلمات لا تقدم ولا تؤخر:

«بكرة تتجوزي سيد سيده. ربنا شايل لك الخير. النصيب لسه ماجاش يا حبيبتي».

قالت ثم نظرت إليّ:

«ونروح بعيد ليه. عريسك عندي. أهو».

ضحكتْ سعاد، رنّت ضحكتها لمّا رأتها تشير إليّ، تبتسم أمي، ضحكة سعاد لمستْ أحاسيس لا تعبّر عنها لغة، تجاوزتني نفسي وخرجت تصطاد أشياء لا تعرف عنها أسماءها، كانت في يدي عقلة قصب، مندمج عند نهاية العود في نزع قشرتها، توقّفت العقلة بين شفتيّ، وتوقّف السائل المسكّر عن الاستحلاب في حلقي، عضت سعاد شفتها السفلى بأسنانها عضة خفيفة، قالت:

«يا ريت يا خالتي. دا عريس عسل. هوّ أنا أطول اتجوزه».

صبيّا كنت عندما فعصت شفتي السفلى بين سبابتها وإبهامها، كأنها تُلاعب طفلا. نترتُ يدها، رفضتُ أن تعاملني كطفل.

قامتْ أمي لتُكمِل طهي ما بـدأتْ تحضيره، جذبتني سعاد إليها، أجلستني على حجرها، أخذت تهز فيّ وتفرك جسدي الطالع بالكاد من عباءة الطفولة بلمسات ناعمة لا تكاد تُلاحظ، يفوق إحساسها المصارحة، خربشات رقيقة، ناعمة ومؤثرة، تتدلّى قدماي وتلمس الأرض، ترفعني ثانية، تتحسس بأصابعها جسدي الصغير، تطلق أظافرها نملًا كثيرًا تسلل في ثوانٍ تحت جلدي وانتشر، اختص سلسلة ظهري مركزًا للذّة، خدّر مؤخرتي وتجوّل بين شعيراتي الدمويّة، أخذ يعبث في مجرى أحاسيسي ويعيد ترتيب رغباتي من جديد، يهذي خيالي، وهما تضحكان على أشياء لا علاقة لها بي. هل شعر آدم بالإحساس نفسه عندما كانت التفاحة في يده تنقصها قضمة، وجمهور السكان الأصليين يقذفونه بالحجارة ويطردونه من الرغد القديم؟

تترك سعاد المقوار، تضع يديها على فخذي، زفيرها يلفح خدي، رأسها بجوار رأسي، صرنا كمخلوق واحد برأسين، زفراتها الساخنة تقطع أمواج أفكاري الساذجة، يخرج من عبّها عبق لم أشمه من قبل، رائحة حساء بارد وخبز ساخن محمّص، مخلوط برائحة أطفال حديثي الولادة وحليب طبيعي، وعرقها، كعطر قديم معتّق، ممزوج بمُحَسّنات كالتي توضع على الأطعمة الجاهزة لتسهيل تناولها. تتجاذب سعاد أطراف الحديث مع أمي عن ذكرياتها مع خطيبها الناقص، الذي تركها عندما لبست قميص النوم الأحمر أمامه، شبع، أو لم يصدق نفسه فترك الجمل بما حمل.

تنشغل أمي في تقوير باذنجانة طويلة ومملّة، ثم تتابع حلّة بها ماء على النار، تعطينا ظهرها لدقائق، تتسحّب أصابع سعاد على ركبتي، تخربش بهمس حتى تصل للعقدة التي تربط الفخذين، تضع يدًا فوق الأخرى، يدها العليا تتجاوب مع لسانها، أمّا اليد الراسية بطمأنينة على العقدة فتنقر بنطلوني الجينز الضيق، تحك معبري برفق، تنتج الحركات عزفًا منفردًا، خاصًا، لا يشاركني فيه أحد، اكتشفتُ لأصابعها وظيفة أخرى أهم من تفريغ الباذنجان، يستمر الحك الناعم حتى أشعر ببلل، مريح ودافئ، ينساب، دفقات تبدأ قوية، ثم تبطئ وتتراخى، تأخذ من وعيي وكياني وما أرى كل تركيز، تسحب منّي الإدراك والتجاوب مع الأحداث والأجواء وتعطيني بدلًا من كل ذلك لذة، لذة تصنع هالة من الغيام تغطي السماء، تتركّز كمادة خام عند منطقة العقدة، يترنّح معبري من النشوة، يفقد صلابته المؤقتة دون أن يفقد النزيف الهادر المسكّر، تنتشر البقعة الصغيرة، يصبح مركزها دنيا خياليّة لا يراها غيري، يظهر البلل على سطح بنطلوني الجينز الأزرق، سائل لزج يصل لأصابع سعاد، تكف عن النقر، ترفع يدها برفق عندما يدخل أبي حاملًا البيضات الثلاث وشنطة الخبز الساخن.

40

منذ أن أصبح جدّي ينام تحت سريري وأنا أخشى أن يلاحظ هزاتي على المرتبة، عندما أحضن الوسادة الطويلة، أنزع عنها بياضتها أم ورد متخيلها فستان زفافي على سعاد، بأسفل الوسادة ثقب طبيعي يسهل عليّ عملية التخيل، كل ليلة أحضن المخدة، أعصرها فتنبت لها سلسلة ظهر ناعمة، أضمها فيصدر السرير مزيكا، يعلن فضيحتي، أخاف من أبي فقط في مثل هذه المسائل، فأمي تفاتحني جهرًا في أحاديث جنسية، ترتدي قناع الدين أو قناع الحكايات عن فضائح الجيران. تحكي لي كثيرًا عن قصة سيدنا يوسف، تطيل في وصف إغواء امرأة العزيز وعفة سيدنا يوسف:

«كانت عاوزه تضحك على سيدنا يوسف. بس على مين. طبعًا مرضيش. ما هو كان نبي يا حبيبي».

تقول لي.

«هوّ أنا لو ذاكرت وبقيت شاطر حبقى نبي؟».

أقول لها. فتضحك ولا ترد.

«يعني إيه تضحك على سيدنا يوسف!!».

أسألها.

«يعني تخليه ينام معاها».

تجيبني فأتذكر مرة أخرى الواد مطراوي الذي انفلق رأسه بعد أن قذفته بطوبة كبيرة، فقد كشف لي عن سر الحياة، كان قليل الأدب، داهمني بسؤاله الكاشف، وأنا أنزع زعزوعة خضراء عن عود قصب:

«عارف أبوك وأمك بيعملوا إيه عشان يخلفوك؟».

«عارف.. بيبوسو بعض».

أجبته بلا مبالاة وأنا أقذف بمصاصة القصب في أذنه، فسحب منّي العود وتوقف عن المشي، فانتبهت، وتوقفت عن مَصِّ القصب:

«لأ يا عبيط».

نتشت من يده عود القصب مرة أخرى، تغيّرتْ نبرة صوتي وأنا أسأله:

«أومال إيه؟».

«بيـ... بعض !».

هيجتني الكلمة، أثارني تخيل أبي وأمي يفعلان ما قاله، ضربته بكل ما أوتيت من عزم، أصبحت كثور صغير يرفس كل ما يقابله، كيف يقول مطراوي «اللي ماترباش» هكذا على أمي الطيبة وأبي المحترم، تراجعت عن تكملة ضربه، بعد أن رأيت الدماء تشخب من رأسه، توقفت تمامًا عندما قال ووجهه مُقلم بخطوط حمراء من كل جانب:

«يا أخي حد جاب سيرة أبوك وأمك.. أنا بتكلم على أبويا وأمي أنا».

رميت كل الطوب، الذي أحضرته في يدي، مسحت وجهه بكم مريلتي، لم تختفِ آثار كلماته القليلة والكاشفة عن مخيلتي، تصوّرتُ طوال الطريق ما قاله لي مطراوي، «كذاب.. مش كذاب.. كذاب.. مش كذاب» لو كان يكذب فلماذا ينام أبي مع أمي في أوضة واحدة؟ ولماذا يقفلانها في بعض الليالي بالترباس؟

بدأت أسأل أمي أسئلة جديدة، أسألها عن ذلك الشيء الخارج من بطن الديك، فور نزوله من على ظهر الدجاجة النائمة تحته وهي تفرك متلذذة وتكاكي بنعومة، أنبوب ملفوف ومبروم في حجم دودة كبيرة:

«إيه ده يا اما؟».

أسألها فتضحك وتداري فمها بطرف طرحتها السوداء:

«يخيبك يا واد. ما هو زي اللي عندك يا حبيبي».

شكّلتْ ملامحي علامة تعجب كبيرة. ولم أسألها بعد ذلك.

41

أتعـرّف بعد أيام مـن الانتقال للأكشـاك على محمد جـاد أحمد، كنّا فـي الصف الأول الإعـدادي. تعلّمت علـى يديه كيف أدخّن السـجائر، ثـم تعلّمت كيـف أدبّر ثمنهـا. كان في البدايـة يعطيني نفسًـا أو اثنين، ثم نصف سـيجارة، ثم تكرّم ونفحني سـيجارة كاملـة، وعندما طلبت غيرها توقفت يد محمد عن المنح، لكنّه اقترح عليّ اقتراحًا مغريًا، لماذا لا أبدأ فـي العمل إلى جوار الدراسـة؟ رفضتُ أولًا، ثم فكَّرتُ في المسـألة من جديد.

كان محمد جاد أحمد طويل الجذع وأطرافه قصيرة نسبيًّا، كنموذج مكبر لقزم، في أول أسبوع دراسة، شاركته في مشروع يليق بِصَبيَّيْن، نجلس أمام كرتونة عليها مربعات بسكويت هش، يرقد على فرشة خفيفة من عسل أسود عطن، نضعها على قفص جريد فاقد الاتزان، يلتف حولنا التلاميذ، وفي براءة تخرق إصبع أول تلميذ واحدة فيكسب شلنًا، كان وضع الشلن «للمُبخت» في مقدمة الكرتونة كفيلًا بأن نبيع ما تبقّى، ونكسب دون اضطرار للتضحية بشلن آخر، ينهال التلاميذ علينا، يخرقون في سذاجة أكواخ البسكويت الهشة الصغيرة دون إحراز

أي مكسب، يندم أغلبهم فور أن يُسلب منهم المصروف، يتحسسون بأصابعهم العسل الأسود فلا يجدون أي عملة تغوص في لزوجته.

يقترح محمد جاد أحمد تدعيم المشروع ببعض الحيل لتقويته، في اليوم التالي لاقتراحه جاء وهو يحمل تحت إبطه قردًا صغيرًا من الصاج، رأسه كبير جدًّا مقارنة بجسده الضئيل، ربط محمد فتلة خفيّة في لسان القرد، وضعها تحت فخذه السمينة، عندما كان يجذبها تنثني مفصلة صغيرة فتشد لسان القرد المغرفي بالنقود التي عليه، يضع العيال قروشهم فوق لسانه، فتنزلق القروشُ والشلنات تلقائيًا داخل بطن القرد، كنا نعِد العيال وعدًا يصدقونه دائمًا:

«لو الشلن فِضل على لسان القرد حيرجع لكم بربع جنيه، ولو بلعه يبقى جرّبوا تاني».

التلاميذ يخسرون يوميًا، غير أنهم أدمنوا اللعبة، تعودوا منظر القرد وهو يفتح فمه الكبير ويُخرج لسانه المعقوف، تساعد أذناه على جذب انتباه المارة بكبرهما المبالغ فيه، يضع العيال مصروفهم على لسانه، يقبض اللسان على المصروف، يأملون أن يخرج لهم بقروش أخرى كثيرة، لا تنعم أحشاء القرد بشيء، تبتلع عن طريق الفتلة المشدودة تحت فخذ محمد كل ما يُعرض عليها، يزداد الزحام يومًا بعد يوم، نصبح كالحواة، يأتي طوفان العيال من مدارس مجاورة ليتفرجوا على القرد الصاج ويشاركوا في تجربة الرهان، يمنحوننا مصروفهم عن طيب خاطر. تتكدّس شكاوى أولياء الأمور أمام ناظر المدرسة، يقف الناظر في طابور صباح اليوم التالي، يمد عصاه للأمام ويغنّي:

«ياما طول عمري رضيت منك أسيّة».

يتقصّع وهو يقلد أم كلثوم، يبدو مضحكًا بكرافتته القصيرة وكِرشه الكبير الذي يحجب عنه رؤية نصفه الأسفل. يضرب كفّه بعصاه ويهزّ رأسه بنشوة. محمد جاد أحمد يقف أمامي مباشرة، له قفا شامخ كأقفية المزارعين، تصطدم عيناي بأذنين كبيرتين وبارزتين عن رأسه بشكل واضح، يمر الناظر أمامنا، أنظر في الأرض حتى لا أضحك، حذاء محمد جاد أحمد أيضا مضحك، في الصف الأول الإعدادي ويلبس مقاس 43.

نواصل العمل في اليوم التالي بالمشروع بعد أن تتبخّر كل المحاذير.

«الناظر عارف إن احنا المقصودين. عشان تزويغ العيال بيقلل عدد مجموعات التقوية اللي هوّ بيشرف عليها».

يقول محمد جاد أحمد، وهو يجذب الفتلة لتضيف قرشًا لأحلامنا المستقبلية، يندمج في شرح المسألة والاجتهاد في إثبات وجهة نظره، نسمع هيصة آتية من بعيد، زحام بشر ضاق بهم المكان في لحظات، هائجون وكأنهم خارجون توًّا من خناقة، يطير القرد في الهواء بعد أن تقذفه قدم أحد الوافدين (عرفنا فيما بعد أنهم أولياء الأمور الذين تقدموا بالشكاوى) يلقف محمد جاد أحمد القرد المعجزة، وأنشغل أنا بجمع الحصيلة التي تبعثرت بين الأقدام، ينفرط الخيط المعلق في لسان القرد، تكرّ البكرة وتتدحرج على الأرض، نحمل القرد الصاج ونجري

بلا وجهة محددة، نتوقف عن الجري عند منطقة زراعية واسعة وممتدّة، بها نخل وزرائب تطوف حولها البهائم، تغوص أقدامنا في أكوام روث ساخن وطري.

«هوّ مشروع خرا من أوله».

أصيح في محمد جاد أحمد، كانت عيناه معلقتين على سباطة بلح أحمر تحملها نخلة شاهقة وعامرة.

«أنا جُعت».

يقول وعيناه تبحث عن طوبة ليقذف به البلح المستوي، بثلاث تصويبات فقط تمطر السماء بلحًا كثيرًا، طريًا ولذيذًا، يأكل محمد جاد أحمد ويشرح لي وجهة نظره:

«أكيد صاحب عربية الحمص هوّ اللي سلط أبّهات العيال دول وهيّجهم علينا».

لم يقطع حبل آرائه إلاّ صاحب النخل، ما إن رآنا حتى شلح جلبابه ووثب خلفنا كوحش فر من غابة، نجري، يستقر بنا المطاف عند ترعة الحلوة، نغسل ما تعلق من روث بأقدامنا، يتأمّل محمد جاد أحمد أفخاذ نساء يغسلن المواعين على شاطيء الترعة، يمصمص شفتيه ويحكي عن بعض مغامراته في التلصص على جارته المُسنة عن طريق مرآة عاكسة، لكن تلك قصة أخرى.

42

بدأتُ أمارس العمل مع محمد جاد أحمد إلى جوار المدرسة، تعلَّمُت منه أشياء كثيرة لم أكن أُفكِّر فيها من قبل، كنَّا نتابع خط سير الأسلاك الكهربيَّة المرميَّة فوق الأكشاك بشكل عشوائي، كابلات رماديَّة سلختها الشمس وفتتها الرطوبة، التيار الكهربي يقطع كثيرًا، نختار أنا ومحمد ذلك التوقيت، نتسلق سقف أحد الأكشاك عند الغروب، نصل إلى طرف السلك ونسحب اللفائف، طبقات يدوّرها محمد حول كتفه وكوعه، ينتهي منها ويصنع دائرة غيرها بسرعة. كنتُ أفعل ذلك بتوتّر، ومحمد جاد أحمد يفعله بمزمزة.

ننتهي من لفّ أكثر من مئة متر سلك، يضعه محمد في شيكارة أسمنت فارغة كانت بحوزته، نتسلل خلف الأكشاك ونتوجَّه للمقابر المحدودة، كانت الشمس تنسحب تدريجيًّا، بدأت ظلال الناس في الضوء الخافت تسبق أصحابها بين الأكشاك، تواطأ الليل معنا على استكمال الخطة. يتلفَّت محمد حوله، يتأكد أن أحدًا لم يرنا، يجلس، يخرج سيجارة من اثنتين في جيب قميصه، يشعلها بعد أن يفرغ منها التبغ الزائد كما يفعل الكبار، كانت مبلولة، أشعلها عدّة مرّات حتى توهجت مقدمتها، ثم مسّ

طرف الشيكارة بالجزء المزنهر فمسكت النار بسرعة في كومة السلك، بعد أقل من دقيقة تحولت الشيكارة إلى كتلة لهب تُخرج دخانًا أسود، ومحمد يسحب أنفاسًا من السيجارة المرشوقة على جنب فمه، ينفض نفايتها كما يفعل عتاة المدخنين. توتّر خفيف تسحّب لأوصالي، تمددت النيران ووصل دخانها أفقيًا للسماء. خمَّن محمد ما يدور في رأسي، فقال بصوت متحشرج يُقلّد فيه الكبار:

«متقلقش.. حتى الرجّالة اللي بشنبات بيخافوا يدخلو التُّرَبْ بالليل».

تصفو النار، تتحوّل الشيكارة الكرتون إلى تراب أسود، يتعرّى السلك بعد أن تسيح قشرته، فوقه نتف من بلاستيك أسود محروق، نلملم ما أسفر عنه الحريق بعد صب الماء عليه، حوالي اثنين كيلو من النحاس الخالص. لم تكن المرّة الأولى التي يفعلها محمد، لذلك كان مطمئنًا، يبتسم، عزم عليّ بالسيجارة المتبقّية، ترددت كثيرًا قبل أن آخذها، لكنّي أخذتها، تملكني نهم في الإسراع بتوليعها، لم يعطني محمد الفرصة للتفكير، أخرج ولاّعة من جيب بنطلونه، وطرقع بها في حركة تنمّ عن حرفنة، مد يده أمام وجهي ليشعل لي السيجارة على طريقة عادل إمام.

اخترقنا منطقة الأكشاك، ومنها إلى ميدان المطريّة. كانت المرّة الأولى التي أسير فيها كل هذه المسافة دون مصاحبة الكبار، واجهات المحلات قلبتِ الليل نهار من شدّة الإضاءة.. من الميدان إلى وكالة البلح ساعتين تقريبًا، راحوا بين التسكّع والتنطيط في الأتوبيسات، يعرف محمد جاد

أحمد طريقه جيدًا إلى أحد محال الخردة، وزن رجل يقف على باب المحل السلك وحسب ثمنه، سبعة جنيهات كاملة، أنا نصفهم ومحمد نصفهم، أصبح لديّ فرصة كبيرة لأشترى علبة كيلوباترا كاملة. أسدى إليّ محمد نصيحة مُهمّة، نبّهني وقال:

«العلبة سهل اكتشافها في جيبك ، لكن سيجارة أو اتنين ممكن تخبيهم بسهولة عن عينين أمك وأبوك».

43

أتممنا ثمانية أشـهر في الأكشـاك كنّـا نجلس أنا ومحمد نسـتمع إلى حكايات تنتشـر كالحمّى في كلّ مكان، حكايات يرويها الرجال للرجال لقتـل الوقت، أو النسـاء للعيال لقتـل القمل، أو الرجال للنسـاء؛ ليفوزوا بعشـر دقائق من المتعة المجّانيّة، أو يرويها العيال للعيال؛ ليظفروا بصور الفنانين أو نحلتين خشـب بدوبارة وكيس كازوز. لا تخرج القصص عن سِـيَر أشـخاص يقومون بالليل ليقضوا حاجتهم فـي دورة المياه البعيدة، يسـمعون أصواتًا مبحوحة تنطلق بصراخ مركـزه الدائم يأتي من المقابر، وتجتمع الآراء على كلمات معيّنة يسـمعها السـائر المزنوق «السـكيّنة.. حرام عليك.. أمك يا رفاعي.. ليه كده يا رفاعي»، ويتفق الناس اتفاقًا غير مكتوب بأن هذا الشـبح كان اسمه رفاعي، ورفاعي لا يخرج بالنهار أبدًا، فالأشباح لكي تخيفنا لا بد أن تظهر في الظلام.

قال بعض سـكّان الأكشاك إنهم يعرفون النسخة الأصلية من رفاعي، ويؤكـدون أنـه كان إنسـانًا عاديًا، له يـدان وقدمان ورأس به شـعر وفتحة شـرج تنقبض وتنبسـط عندما يخـاف. وذلك قبـل أن يقتله أحـد أقاربه، يذبحه ويعبأه في شـيكارة، يكتّفه لكي لا يهـرب من المقابر ويتحوّل إلى

شبح، ولكن رفاعي يهرب، ويتحوّل إلى شبح، وأسأل: ما دام رفاعي هو الذي يتكلم فكيف يكون هو نفسه المخاطَب؟ لابد لكي تستقيم الحكاية أن يتحدّث رفاعي بنفسه ويخاطب شخصًا له اسم آخر.

اتفق الناس على أن رفاعي الأصلي كان يعيش في الأكشاك، منذ عشرين عامًا، ولكن لم يذكروا رقم الكشك، اقتنع جدّي طلبة بعد سماع الحكاية أن كشك رفاعي لا بد أنه كان يحمل الرقم 13.

وأتركهم يظنون، من يتخيّل نصف رفاعي الأسفل إنسانًا، ونصفه الأعلى طيفًا، ومن يقول إنه رآه مُكتّفًا بحبال صُلب يعب بفمه من البركة حتى جفّت وبانت فيها قراميط صغيرة سوداء، ومنهم من شط خياله بعيدًا، وقال إن البركة الصغيرة ما هي إلا زنقة فكّها رفاعي وذهب إلى مرقده، فأبت بأمر الجن أن تجف.

انتشرت الحكايات عن رفاعي، أصبح من الصعب ضبط إيقاعها، وأسأل محمد جاد أحمد عن ذلك الشخص الأسطوري، يرد عليّ والثقة تنضح من ملامحه:

«رفاعي بعد ما كتّفوه ودفنوه خرج أربعين مرة. وبنى الأربعين كشك دول. وبعد الأربعين بتاعه بطّل يخرج وبطّل يبني أكشاك. بقى يخرج يتفرّج عليها بس لمّا يجيله مزاجه».

وعندما بدا عليّ تعثُّر الفهم أضاف محمد:

«أومال».

تستفحل سيرة رفاعي، وأسأل عنه شخصًا يسكن منطقة الإيواء منذ زمن بعيد، كان صاحب ورشة سمكرة خلف الأكشاك، أراه كل يوم وأنا عائد من المدرسة، أطرح عليه السؤال الذي يحيّرني، يقول وهو يُسيّح عود إستنلس بغاز الأرجون في دوّاسة سيارة:

«عالم فاضية. رفاعي إيه وبتاع إيه؟ يا ابني الترب دي بتاعة نصارى من ييجي متين سنة. وقبلها كانت أرض زراعة اسمها حوض جرجس. الحكومة خدت منها حتة عملتها إيواء والباقي فِضِلْ تُرب زي ما هوّ. بس. آدي الحكاية».

أترك الرجل الذي انشغل في مُسدّس البشبوري وقناع اللحام.

وتظهر حكاية أخرى في منطقة الأكشاك قبل أن أنسى سيرة رفاعي.

44

خلف كشكنا تنمو شجرة، قالوا إنها نوع نادر من شجر البلسم، تلمس غصونها سقف الكشك، عليها أخاديد وبروزات، قالوا مرة إنه اسم الجلالة، ومرة اسم سيدنا محمد ﷺ، ومرة كلمة الإسراء والمعراج. وفي آخر مرة قال أحد السكّان إنه رأى على جذعها ملامح الزعيم جمال عبدالناصر، لا ينقصه إلا طرف أنفه الحاد، وأسفله كلمة ناصر، يغيب عنها حرف الصاد..

لم أكذّب خبرًا وذهبت أتأمل فيها ما سمعت عنه، معي ظلّي الدائم، محمد جاد أحمد، كان الوقت ليلًا، ومحمد كعتاة اللصوص، يحمل معه دائمًا كشّافًا صغيرًا ببطارية، لزوم تفقُّد المواقع ومعاينة البضائع، ضرب محمد الكشّاف في جذع الشجرة، فظهرت لنا أشياء أخرى تقفز خيالاتها كأمواج رمادية صغيرة ترقص في طبق، قال محمد إنه شاف عصفورة بذيل ملون تقف على غصن أخضر، وقلت له إني رأيت أرنبًا أبيض بأذنين أطول من اللازم يتحرك ببطء فوق عشب بُنّي. لم نجد أثرًا لما سمعنا عنه، عندما مر محمد عليّ في الصباح، وقبل الذهاب للمدرسة، تأملنا الجذع مرة أخرى، نظرت إلى محمد ونظر إليَّ، فقد مُسح من على

الشجرة كل ما رأيناه بالليل، كل ما جدّ أنّي رأيت شابًّا صغيرًا ملتحيًا، كان يقرأ القرآن، وهو ساند ظهره على جذعها.

بفطنة أمي الريفيّة أيقنت أن الشجرة سيظهر لها زوار، ولا بد سيكون القادمون ضيوف الرحمن من الأتقياء الورعين، كانت مناسبة لإظهار إيمانها العميق، ستستضيف بقدر استطاعتها الناس الصالحين، تُقدّم لهم الماء المثلّج، والشاي إن أمكن. بدأت في ترتيب الكشك من جديد، بشكل يناسب استقبال ضيوف، وكُلّه لله. دقّ أبي كرسيًا كان مركونًا بلا قُرْصة، رصّ في فتحته سُلخ مخلوعة من صناديق رنجة مرميّة ومسمر فيه كرتونة نتيجة، رمى عليها قطعة قماش متّسخة كانت كسوة لمسند.

بدأ الزوار بالفعل في التوافد، عددهم فاق المحتمل. بعد ساعات قليلة، تحوّل محيط كشكنا المُتشبّع برائحة بول جارنا العجوز إلى مزار. في البداية كان الزوّار فقط من سكان الإيواء والمساكن المجاورة، ولكن في اليوم التالي جاءت الناس تبكي قبل أن ترى الشجرة، أشخاص يهرولون وأقدامهم تُزحّف الغبار بين الأكشاك.

في أول صلاة جمعة بعد هذا الاكتشاف وجد خطباء المنابر ما يجذبون به آذان الناس. مُهّدتِ الأرض للحديث عن الأولياء والأسلاف الأكثر ورعًا في أمّة الإسلام التي أصبحت كغثاء السيل، صوّب الوعّاظ سهاما موجهة إلى هؤلاء الذين سيهلكهم المولى القدير بسبب ابتعادهم عن الطريق القويم.

تظهر المنطقة المنسيّة فجأة على الخريطة، تعرف مصفّحات الشرطة طريقها إليها، تذكّرونا في شيء آخر غير المصائب، يطوّق أفراد الأمن الأكشاك وينظّمون الناس، بعض إصابات ورضوض وقعت بسبب التدافع. أصبح دخولي إلى باب الكشك لا يتم إلا بأكروبات، وخروجي إلى الحمّام لا يُجدي إلا بالقفز فوق الناس.. عشرة أيام لم يمكننا فيها النوم. وجدّي طلبة يقول لأحد الضباط:

«متاخدوها يا باشا وتريّحونا منها».

ويرد الباشا:

«انتَ عاوز تودينا في داهية يا حاج؟ هيَّ فيه مُعجزة بتتنقل من مكانها؟ دي الناس كانت تاكلنا».

يلعن أبي الساعة التي دق فيها الكرسي وزيّنه بالمفرش، وبعد تفكير طويل يلعن الشجرة نفسها.

تكّات فلاشات التصوير بالليل تصحّي الأموات، وجحافل الزائرين بالنهار تردم الأكشاك، يتجمّع الناس فوق سقف الكشك، يضبطون كاميراتهم ليتمكّنوا من التصوير بوضوح، أسمع دبيبهم الجماعي وكأن كوكبًا من الفئران سقط فوق رؤوسنا. لا تخرج أمّي من الكشك إلا للشديد القوي، وأبي أكثر الخاسرين في موقعة الشجرة المباركة، فدخوله إلى الكشك بعد العصر أشبه بمعجزة تتخطى معجزة الشجرة نفسها، يعود مرة أخرى لسبّه ولعناته، أصبحت الحياة لا تُطاق.

بعد أن انقضى أكثر من أسبوع عاد كل شيء كما كان، دون أسباب واضحة، انسحبت المصفحة والبوكسين ببشاواتها وعساكرها. لم يعد أحد يبكي بجوار الشجرة. حتى الشاب الصغير الملتحي، اكتشف أن قراءة القرآن في المسجد المضيء النظيف؛ أفضل من قراءته في الشارع بين الناموس والحشرات. عادت المنطقة هادئة، الناس الذين نصبوا الخيام فجأة خلف كشكنا، طووها فجأة، وفي الحالتين لم يقدّموا أسبابًا مقنعة.

45

يفصل التيّار الكهربي، تتوقف الثلاجة عن زنّها، ويتوقف المسجل عن دق دفوف المدّاحين، يدب الخوف في قلب أبي.

فقد كانت سيرة قُطَّاع الطرق قوية في أرض الأكشاك، ولكن ماذا سيسرقون من أكشاك فقيرة لا يجد ساكنوها قوت يومهم؟ مع مرور الأيام أعرف أن لكل منطقة بيوتها وشوارعها ورئيس حيّها، وكذلك لكل منطقة لصوصها، ملثمون يقتلون من أجل مسجل توشيبا بباب واحد، أو محفظة فيها جنيهان وكارنيه أتوبيس وصورة لطفل.

يجلس أبي ويمسك برأسه، يعصره، يفتح باب الكشك ليستطلع الأجواء بالخارج:

«بالك لو جم؟ هنقف لهم ونكسّر دماغهم».

يجيب عن سؤال لم أسأله، يتراجع خطوة للخلف عندما يسمع وقع أقدام بالخارج، صوت بطيء متلصّص، يزداد وضوحًا مع كل خطوة، أنا وهو فقط مستيقظان، وأمي وفتحي وجدّي في سابع نومة.

يغلق أبي باب الكشك بالترباس، يضع خلفه كرسيًّا ويجلس فوقه. لم تكن تصرفات شخص يُمهّد لأي مواجهة، يهمس إليّ بأن أرهف السمع

معه لأي صوت بالخارج. أزيز مستمر يشق الهواء، لا يمكنني تحديد سببه.

صفير الريح كشرخ في ورق كرتون، تهمد الأصوات بعد قليل، باب الكشك مقفول بالترباسين، الكبير والصغير، أسمع وقع بول جارنا المُسن خلف الكشك، ثم يسود بعد ذلك صمت مخيف. من سلخة النور الضعيفة، فوق حلق باب الكشك، يرى أبي ضوءًا يقترب، تنفلت منه كلمة لا يقصدها «مشاعل المنسر» يبتلع الكلمة، يتوّهها بسؤال سريع «النور.. هوّ نور إيه ده؟» يقترب الضوء، نسمع صوت طرق على الباب المتداعي، يستجمع أبي شجاعته يسعل «إحم.. إحام» ينظر إليّ نظرة خاطفة ثم يقترب من الباب باندفاع غير متوقع، يفتحه بسرعة على مصراعيه. من تحت ذراعه أنظر، أرى جارنا العجوز يحمل «كلوب» ويحوطه بكفه الآخر لكي لا تقع «الرتينة» من شدّة الهواء، يسأل أبي بصوت واهن:

«ألاقيش عندك حبّاية للصداع؟».

ودون أخذ ورد، يعطيه أبي الحبّة، ينصرف الرجل العجوز، ويختفي الضوء تدريجيًا.

وقت انقطاع الكهرباء يلبد جيراننا في أكشاكهم، يكمنون حول قصعة نار أو طبق طبيخ، فيمكننا سماع صيحة أحدهم وهو في فراشه، أو ضحكة زوجة يقرصها زوجها، نعرفه من نبرة صوته بتحديد مسافة الكشك. كان النور مقطوعًا وأنا مزنوق بشدّة، قلتُ لأبي:

«أنا رايح دورة الميّه».

قال: «استنّي.. جاي معاك».

نخرج وكل منّا يرى حجم الآخر ولا يستطيع تحديد ملامحه على بُعد خطوة واحدة، بعد انتهاء آخر كشك وظهور دورة المياه أظلمت الأرض، بالكاد يمكنني رؤية كفي، لا يقل الصمت رعبًا عن الظلام، كلاهما يسحب قدميّ من فوق الأرض، فأُصبح كمن يستعد للنوم، أو للطيران.

نصل، وأمام دورة المياه نقف، قبل أن ندخل بخطوة واحدة، عند العتبة، تنشق الأرض ويخرج من بطنها ملثمون ثلاثة، في يد كل واحد سيف، وفي جنبه سنجة، يقف أبي كالصنم، يتبخّر كل ما تعلمه في الدنيا، يكاد يبول على نفسه من فرط المفاجأة. يقترب أحدهم، كان طويلًا بفعل الرهبة والظلام، يقول كلمات تاهت فيها مخارج الألفاظ:

«طلّعوا اللي معاكم».

يجذبني أبي من ذراعي في حركة غريزيّة، صرت خلفه تقريبًا، تنكمش خيالات لصوص الطريق، أرى من خلفنا ضوءًا آتيًا، نفس الكلوب الذي كان يحمله جارنا العجوز، يضع يده بالقرب من الرتينة، يقترب منّا، في نفس التوقيت يصيح أحد المصلين في مكبّر الصوت بالمسجد «الصلاة خير من النوم» تداهم أبي همّة منبعها الخوف، تمثّلت همته في النداء بصوت عالٍ على الجار الذي يحمل الكلوب:

«خلّي بالك يا بو محمد.. الرتينة ضعيفة والهوا شديد».

يقترب الجار أكثر، يظهر أمامنا هُلام بيجامة كستور باهتة، تتدلّى منها قدمان ويشرئب من قبّتها عنق نحيف يحمل رأسًا. لم يكن أمام قُطّاع الطرق إلاّ الاستعداد للهرب قبل استفحال الأمر وهجوم الأهالي عليهم.. مثلما ظهروا فجأة اختفوا فجأة. يبتلع الظلام الأشباح، كأن لهم في الأرض جحورًا، يقترب جارنا، يمسك ما بين ساقيه ويفعصه، أمام دورة المياه يعطيني الكلوب، ويقول بصوت مبحوح بالكاد أسمعه:

«امسك يا حبيبي أحسن الميّه خلاص. حتنزل».

يرتبك أبي، يضع يده على كتف الجار العجوز، ودون أن يتلفّظ أتناول منه الكلوب، تُسرِع خطوات الرجل، يتخطّى عتبة دورة المياه، يغيب بالداخل، تصبح الفرصة متاحة؛ ليشرح لي أبي موقفه الحقيقي من قُطّاع الطُرق:

«نفدوا بجلدهم. بالك لو كانوا وقفوا كمان دقيقة واحدة بس. أنا كنت قطّعتهم وشربت من دمّهم.. أصل دي عالم تخاف متختشيش».

لا أرد عليه، يحاول حمل الكلوب عنّي برفق، ثم يعاود الحديث عن اللصوص:

«أنتَ تعرف إن كل الحراميّة قلبهم ضعيف؟ يعني خبطة واحدة من إيد عيّل صغيّر، ممكن الحرامي يروح فيها».

وآخذ منه الكلوب، يخرج جارنا العجوز باديًا عليه الارتياح. يحمل عنا الكلوب، يشرح وجهة نظره في شيء آخر تمامًا:

«ربنا ما يوريكوا يا جماعة. حاكم السكّر دا بيخلي لامؤاخذة الميّه تنزل نقطة نقطة. وكل نقطة نار بتحرق مكانها».

لا أرد، ولا أبي رد، ويردف الرجل:

«وبعدين هوّ انت بتقول لي يا بو محمد ليه؟».

ويرد أبي الذي فاجأه السؤال:

«أومال إنت أبو إيه؟».

يصمت الرجل، ينعكس خيال عمود نور على وجهه، لا يرد حتى يصل إلى كشكه، يضع الكلوب أولًا على حجر كبير أمام الباب، ثم يفتح قفل الكشك، ويرفع عُلّيقة الكلوب، يغطس داخل الفوّهة المظلمة ثم يلتفت ويقول:

«أنا مش أبو محمد.. أنا مش أبو حد خالص.. بقالي ست سنين عايش لوحدي في الكشك ده مستني استمارة الشقّة لا حد بيزورني ولا بزور حد».

يبتسم ابتسامة شاحبة، يضحك ويهتز، ثم أسمع صوت الترباس يغلق من الداخل.

46

تسـلل النـور مـن ثقـوب فـي السـماء، لـوّن الضـوء معالم الأشـياء، ومسّها بعصا تكشـفها وتخنق الظلام تدريجيًا. ندخل إلى عمق الكشك، تقابلنـا أمي في طريقها للخارج. يسـألها أبي عن سبب الخروج المبكّر، وتُجيب:

«رايحة السوق».

تجذبنـي من يدي فـي اتجاه الخروج، كنت أشـتاق لحضن السـرير، وأحـن لأحـلام ناعمة بعد هـذه الليلة الخشـنة، لا أرفض يد أمـي غالبًا. انصاع للخروج معها، تندفع بي جامحة، كأنّها سـتطير بعد قليل، تنحرف قليلًا عن طريق السوق، وأسألها:

«انتي مش رايحة السوق».

وتجيب بصوت واثق:

«لأ».

بصحبة أمي، ليسـت هنـاك فروق كبيرة بين المشـاوير، كلها لها طعم الطمأنينـة. نتـرك منطقة الأكشـاك، نجتـاز الـورش المغلقة، والمسـجد

الصغير ودورة المياه، يظهر أمامنا الشـارع الرئيسـي المفضي إلى المسلّة الفرعونيّة المشهورة.

تتوقف أمي عند بوابة المسـلّة الرئيسـيّة، حولها تجلس نساء كثيرات، بملابـس فقيـرة وملامـح جائعـة، ينتظرن شـيئًا مـا. تندفس أمـي بينهن، تجذبنـي بجوارهـا أمـام البوّابة، بعض النسـاء معهن أكثر مـن طفل، هل ستتسوّل بي أمي؟

علـى البوّابـة يقـف رجـل أمن أسـمر طويـل، يزهـو ببدلتـه الكحليّة وشـريطين عيرة على كتفيـه، يتحدث كصول وجد أمامـه كتيبة من جنود مستجدّين:

«لسة مش دلوقتي.. فاضل ييجي ساعة. وسَّعوا شويّة».

لم يُفسـح أحد، كان يقول ذلك ليثبت مكانتـه المتميّزة فقط، فالرجل كمـا يظهر للأعمى يتفوّق علـى كل الموجودين، بدءًا مـن وقفته وهيئته، ومرورًا بابتعاده عنهم بمسـافة ملحوظة، وسـحبة نفس من السـيجارة في حركة مسـرحيّة، وانتهـاءً بكلماته القليلة، التي يسـتخدمها فـي الرد على الاستفسـارات الكثيرة. يولّع السـجائر من بعضها، والناس، منهم من نام ومنهم من على وشك النوم.

تـدب همّـة مفاجئة في جميـع الموجودين عند سـماع صوت محرك سـيّارة يقترب، ومع صوت المحرّك تظهر بالفعل سـيارة نقل كبيرة، بينها وبين البوّابة حوالى خمسـين مترًا، يهجم الناس على رجل الأمن الأسمر

الطويل، يغلق الرجل البوابة بالجنزير مهددًا الجمهور بالخارج بعدم فتح القفل للسـيّارة إن لم يعودوا لأماكنهم كمـا كانوا. لا يفتح بالفعل إلا بعد أن عادوا صاغرين، ممتثلين لأوامره، هشّ الرجل شعبه الصغير وقال:

«طب ما تستنوها برّه أحسن».

وترد إحدى الواقفات:

«يا باشا ماحنا مش عارفين حتفضّي فين المرة دي؟».

ويتكيّف من كلمة يا باشا، فيندمج في الحوار أكثر:

«انتم عشـان غلابة وأغلب من الغلب. أنا هسأل لكم عن مكان تفريغ الحمولة المرة دي فين بالظبط».

ويغيـب الرجـل داخل البوابة، لا ينسـى أن يغلقها مـن الداخل؛ لكي لا يهجـم عليـه الشـعب الصغيـر المتحفّز بالخـارج، يغيـب لدقيقتين ثم يعود، يغلق البوابة من الخارج، يقف ويخطب في الناس:

«العربيّة هترمي حمولتها عند أول السور من ناحية المسلّة».

وتسأله إحداهن:

«كلمة شرف يا باشا؟».

«كلمة شرف».

«إلهي يسترك. بينا يا جماعة نروح على هناك».

قالتها فحرّكت الجموع خلفها بسهولة، جرت النساء بعيالهن إلى طريق السور من ناحية المسلّة، زحّف السائرون التراب فطار وضبب الرؤية، أصبحن كعفاريت خرجن من تحت الأرض، وأنا أمسك بيد أمي ولا أفهم شيئًا، فقط أجري ولا وقت لديّ للسؤال، خطوة أمي الخفيفة بدت مجهدة عندما قارنتها بقفز نساء صغيرات أخفّ من الريشة، صرنا كمجموعة كومبارس يمثلون مشهدًا في فيلم عن الحروب البدائية. توقفت لنا السيّارات حتى عبرنا الطريق، الناس لا يهمهم السيارات المتهورة ولا عثرات الطريق، كل ما يهم هو الوصول لهدف حتى الآن لا أعرفه.

أغلب النساء المهرولات يلبسن ملابس البيت، جلاليب أقرب لقمصان نوم بِكُم، من تحتها تظهر كلاسين رجالي أغلبها بُنيّة، تُزحّف شباشبهم البلاستيك السوداء في الأسفلت. أجري مع أمي ولا أدري إن كنت ألحق بشيء أم أهرب من شيء. داهمتِ الهمّة الجموع. عند اقتراب السور من ناحية المسلّة تباطأت الخطى، خفّت السرعة حتى توقف قطار النساء عن تقليب التراب وحرث الطريق. بُدّلت اتجاهات الرؤوس إلى بوابة مهجورة ابتعدت كثيرًا، هللت النسوة، عندما لمحتْ إحداهن السيارة النقل الكبيرة تتهادى وتتطوح كصندوق سكران في آخر الشارع، عند اقترابها وسّعتْ لها الجماهير، صنعت النساء دائرة لكي تتوغّل السيّارة فيها، حوّطنها من كل الاتجاهات، فأصبحتِ السيّارة بحمولتها كالجزيرة بين أمواج الناس.

بدا السائق مدربًا على مثل هذه الزفّة، أفرغ حمولته ومن حوله نساء وعيال. يرتفع قلاّب السيارة قليلًا، تهلل النساء وتهيص الأطفال. ينفتح الصندوق الخلفي، يصدر صريرًا مزعجًا، ينزلق غبار كالدخان، تتبعه كُتل بيضاء مختلفة الأحجام، أطباق صيني مشطوف حوافها، فناجين شاي بلا يد، فناجين قهوة منبعجة الاستدارة وغير واضحة الرسمة، قاعدة حمّام صيني مفدوغة، حوض به كسر، صبّانات مشروخة أو غير مطابقة للمواصفات، مشاجب تنقصها حلقة، توالت المنح حدفًا تخطفها الأيادي المتحفزة، وتلهف كل ما تطوله.

تبعدني أمي عن السيّارة، تندس بين الهاجمات، تضرب يدها في أكوام القش وتخرج بما فيه النصيب، تعطيني ثلاثة فناجين معيوبة بأشياء غير مهمّة، مقشّرة أو مشرشرة الحواف. في الغُطس الثاني جُرِحَ إصبعها، لم تهتم إلاّ بما حَصَّلَت، كان نصيبها صبّانة وثلاثة أطباق، أحدها فاقد لرُبعه، تعطيني كومة قش، وتجلسني عليها بعيدًا عن عجلات السيارة وأعين الناس، تنقل ما تأخذه من حمولة السيّارة، وتدفنه في القش، لا تنسى في كل مرّة أن تحذّرني:

«إوعى تدّي حاجة لحد».

تقولها وتنصرف، وقبل أن تبتعد عنّي تعود مرّة أخرى لتكمل النصيحة:

«ولا تاخد حاجة من حد».

تغيب بين أكوام النسـاء، تنصرف السيارة ببطء، يحاول السائق تفادي عيـال صغيرة، لا تزيد أطـوال بعضهم على ارتفاع إطار السيّارة. يحاول كذلك تفادي نسـاء، أسـكرتهن نشـوة امتلاك الصيني، ونسـين أنفسـهن وهـن سـاندات علـى الصنـدوق الحديـدي القـلّاب. تنصرف السيّارة، يشتد الهجوم على محتوياتها، هبط جبل مخلفات شـركة الصيني بشكل ملحوظ، تحوّل إلى كومة صغيرة، لم يبق منها إلا ركام لا يفيد في شيء.

أمي لاتزال غائبة بين أكوام النسـاء وبقايا الشـذرات البيضاء الحادة.. أفكّـر فـي تـرك الغنائـم ومحاولـة البحـث عنهـا، أتراجـع عندمـا أتذكّر التحذيـرات والنصائح، بعد مدّة يأتينـي صوتها مجهدًا، يخرج من أحبال صوتيّة مجروحة:

«بتاعتي.. أنا اللي مسكتها الأول».

يغيـب صوت أمـي لثوانٍ، تظهر بعد قليـل وهي تحمل على رأسـها قاعـدة حمّام بيضـاء، تمشـي مرفوعة الهامـة صلبة العـود، تلفها دوّامات ترابيـة وتنظر نظـرة من فاز فوزًا عظيمًا، تقف أمامـي وتنزل حملها، تضع داخـل القاعدة عددًا لا بأس به من المحصّلـة الصغيرة، صبّانات وأطباق وفناجيـن، ثـم ترفعها مرة أخرى على رأسـها، ألمح فـي القاعدة الصيني فدغة وكسـر في صوانها الداخلي. أحمل ما تبقى من الحصيلة، وأمشـي خلفها.

أرى نفسـي وأمي كنملتين وجدتا طعامهما في نقطة عسل وقعت من شخص عابر.

في لحظات خاطفة وسـريعة يتلاشـى وقـع أقدام النـاس من حولي، تتوارى أصوات السـيارات وزعيق الباعة، حتى الغبار، يتحوّل إلى دخان مُلوَّن لا يؤثر على رؤيتي، أنا وأمي فقط نتلفّع بقطعة من السحاب العالي، أرى كل شيء صغيرًا وتافهًا، لا يربطني بالعالم الذي كنت فيه إلا ما أحمله من منتجات صيني معيوبة.

تجذبني أمي بعنف من أمام سيّارة مسـرعة، تهزّني كأنّها تخضّ قربة لبن:

«فتّـح للطريـق.. امشـي زي سـوّاق العربيّة.. بـص ثانية يميـن وثانية شمال ومِيّة قُدّامك».

47

عندما نصل تضع أمي القاعدة أمام الكشك، يتفرج أبي وفتحي عليها، يحملقـان مدة طويلـة، يملّس جدّي طلبة على حوافهـا، ثم يجلس فوقها كالجالس على كرسي، ويسأل:

«أومال فين مستلزماتها؟».

ترد أمي وهي تخلع طرحتها لتبقى بالإيشارب القصير:

«مستلزمات إيه؟».

يضع جدي طلبة رجلًا على رجل ويبدأ الشرح:

«دي لها سيفون وشطاف وسباكة.. أومال. دا لسه دنيا ياما».

تـرصّ أمـي الأطبـاق والفناجيـن على رف خشـبي ارتجالـي بجوار الشـبّاك، تبدأ فرز طماطم طريّة من الثلاّجة، تفعصها في مصفاة لتحضير الغداء:

«أنا جبت القصريّة وأنتم بقى عليكم الباقي».

يقترب أبي من القاعدة، يلف حولها مرتين:

«انتِ جبتيها منين؟».

«من باب الله».

يتقمّص فتحي دور الخبير العالم ببواطن الأمور، يقول:

«يـا جماعـة دي عـاوزة حنفيّات ميّة ومواسير وحاجـات كتيرة مش موجودة أساسًا في الكشك».

يقول أبي وكأنه اكتشف شيئًا جديدًا:

«أومال جايباها نعمل بيها إيه؟».

يقترب منّـا جارنا المريض بالسكّر، يتأمـل الرجل القاعـدة الصيني بإعجاب، يتابعها بكل تركيز، ثم يخص أمي بسؤال:

«منين القصريّة دي يا ست؟».

ترفـع يدهـا مـن المصفـاة وتخرج، تطـوف حـول القاعـدة البيضاء، كمكتشف تأكّد من أهمية اكتشافه:

«من عربية الخزف».

تقول ويدها تنقط عصير الطماطم الأحمر فوق القاعدة البيضاء.

«أنا عايزها».

يقـول الرجـل بصـوت واهـنٍ يليق بمريـض، لـم تُكمل أمّـي هرس الطماطـم، تتأمّـل القاعـدة الصينـي جيدًا، وتحتقـن ملامحها، ثـم تتأمّل الرجل طويلًا قبل أن تقول:

«وحتعمل بها إيه يا عم؟».

ويجيب الرجل بثقة:

«وانتِ حتعملي بها إيه؟».

«حبيعها لبتاع الروبابيكيا، وأجيب بتمنها كشاكيل للعيال».

يحتـار الرجـل في الـرد، يقـول وناصيته تلمع تحت أشـعة الشـمس الخفيفة التي بدأت تفرش الأرض :

«أنا حجيب لِك الكشاكيل وآخد القصريّة».

«برضه مقلتليش حتعمل بها إيه يا عم؟».

ويرد العم:

«هعمل فيها زي الناس.. دورة الميّه بعيدة يا بنتي.. المية بتحزقني كل ربع ساعة.. وبتعب جامد. ربنا ما يوريكي».

وتعطي أمي القاعدة الصيني للرجل دون مقابل.

لم نكن نعرف له اسمًا، يعيش وحيدًا بلا زوجة أو أبناء، لا يزور أحدًا، ولا يـزوره أحد، يؤكد مرارًا على غلق باب الكشـك جيدًا، يسـد فواصل البـاب بسُـلخ خشـب، النافذة الوحيدة التـي تربطه بالخـارج دائمًا مغلقة ومدقور فيها خشـبة متقاطعة ومُسـمرة. في مسـاء اليوم نفسـه، نسمع دقًّا واهنًـا يصدر من كشـك الرجل، يطير النوم من عينيَّ، أتسـحّب في اتجاه الصـوت، ألمـح بابه مواربًا، أقتـرب، أرى ما يفعله، يحفـر حفرة ويُمكِّن

القاعدة في ركن منزوٍ، يشق لها مجرى، قناة صغيرة تعبر خارج الجدار، بجوار القاعدة جردل به ماء يسبح على فوهته كوز صفيح، يجلس الرجل على القاعدة ويهزّها؛ ليتأكد من متانتها، يرفع جلبابه وينزل كلسونه، ثم يجلس مرة أخرى ليجرّبها عمليًا. أبتعد عن الكشك، وصوت ارتطام الماء بالقاعدة الخزف يأتيني قويًا من الخلف.

بعد ذلك، لم أر جارنا العجوز لأكثر من شهر، لم أسمع له حسًا، حتى ظننته استلم عقد الشقة وترك الكشك دون أن يقول لأحد.

48

يرتّب جدي طلبة المكان ويهندمه بنشاط غريب، يساوي متعلقاته بصبر وفرحة تطل من ملامحه، يرفع المرتبة ويضعها في الشمس دون مساعدة من أحد، يغسل الملاءة بنفسه وينشرها خلف الكشك، يُبدّل جلبابه المتسخ الذي يميزه بآخر كشمير له قطان عريض ولامع، يضع لاثة نظيفة ومكويّة على قفاه، يجذبها من الجانبين ويوازن بين طرفيها، شعره مَحْنيٌّ بلون قشرة البصل. يجلس فوق سريري ينتظر أن يعلق أحد على مظهره الجديد، تنشغل أمي بترتيب بعض الأشياء فوق سطح الثلاجة، تكنسها بخرقة وتضع فوقها مفرشًا مشرشرًا وقصريّة زرع صناعي، تقف سعاد بجوار أمّي، تسألها عن طريقة جديدة لعمل المسقّعة.

ألمح جدّي طلبة بهيئته الجديدة ولا أجرؤ على التعليق، لا أصدّق أنه فعل كل ذلك دون مساعدة. بدا جدّي الذي تخطّى الثمانين جذّابًا وفي طلّته أبّهة بشكل ما.

أمّي تتابع جدّي في مظهره الجديد، تهرش رأسها من فوق إيشاربها الأزرق القصير، وجدّي طلبة يلمّع «بُلغته» التي نسيها تحت الكنبة لسنين طويلة، يخرج من تحت سريري، يتقرفص فوقه. يفرك، يحمر وجهه وتلمع عيناه، لم يكن أبي موجودًا، فانطلق جدي وكأن الجملة خرجت من آخر غيره:

«عاوز أتجوز».

توقفنا عن كل ما كنا نفعله، كل ما كنا نفكر فيه، وكأن جملته ثَبّتتِ الصورة، استطاع في أقل من ثانية أن يجعلنا أصنامًا، لضمنا الجُملة تلو الأخرى بالكلمات نفسها:

«بتقول إيه؟».

«إيه عاوز أتجوز.. كان عيب ولّا حرام؟».

تتوقّف سعاد عن تكملة ما بدأته من تقشير الباذنجان، وتؤجل أمي شرح وتفسير ما تبقى من خطوات لطهي المسقعة، ونحتار جميعًا كيف سنواجه هذا المطب، هل لا زال جدي طلبة يحتفظ بين أحشائه برغبة في النساء، هل عندما يرخي الليل ستائره ويفرد الخيال حصيرته، يعانق جدي ويضاجع بنات جميلات، يتسربن إليه في الأحلام؟ يحتلم ويستحم؟.

تُنشِّف أمي يديها في جلبابها بسرعة، تجلس بجواره، تضع يدها العفية على كتفه الهزيل، تتأمله جيدًا وكأنها تراه للمرة الأولى:

«انت عاوز تتجوز بجد يابا طلبة؟».

«هيَّ غنيوة؟ ماقلنا عايزين نتزفّت».

يشيح بوجهه عنها غاضبًا كطفل لايزال يتعلم الربط بين الأحاسيس والتعبيرات، تقفز سعاد إلى الناحية الأخرى، يُحاصَر جدي، تنظر سعاد إليه وكأنها أمام عجيبة خرجت من بطن الزمان، نتفرّج جميعًا عليه، عيناه براقتان، ضيقتان تلتهمان ما تطوله من متعلقات في الكشك، تجفف أمي يديها وتتأمله، تنفرج أساريرها، تضحك وهي تقول:

«آه وماله. يا نهار الهنا. طيب ماقلتليش يابا طلبة. أنتَ حاطط عينك على حد يعني ولا تسيبني أنا أختارلك؟».

يتأملها جدى وهو فى كامل الأبهة، ويسألها:

«عندِك حد؟».

«عندي؟ آه أومال. دانا عندي وعندي. بس انتَ تشاور».

تضع إبهامها وسبابتها على شفَّتها السفلى، تعرضُ ابتسامتها وتقول:

«ولا انتَ في ضميرك حد معيّن؟».

يفتح جدي طلبة التليفزيون الصغير المركون، خلف باب الكشك، فتظهر على الشاشة لقطات من المسلسل العربي الذي يذاع بعد الظهر، أحداثه عادية ومكررة، ماذا يريد جدي طلبة؟

نتابع معه عدّة مشاهد، وقبل أن يسأله أحد عما يقصد بالضبط، يصيح كطفل صغير أرهقه البحث عن لعبته:

«أهه.. هي دي البت اللي أنا عاوز أتجوزها».

يشير إلى فتاة يافعة جميلة، تُقدّم إعلانًا يتخلل المسلسل عن نوع صابون جديد، تظهر مرة وهي تحت الدش تمسك بالصابونة، تنزلق من على صدرها إلى بطنها، ثم تقطع اللقطة بالصابونة نفسها وذات اليد إلى ركبتي الفتاة، ثم تظهر مرة أخرى وأصابعها الناعمة اللامعة ملء الشاشة وهي تغسلها بالصابونة المراد الإعلان عنها، نحتار، وبخاصة أمي التي تُدير المشهد، ماذا ستقول له؟ جدّي طلبة لا يستطيع دخول الحمّام دون

مساعدة؟ جاءتها الفكرة فلم تتردد، تسحّبتْ بجواره وجلست، ثم قالت باستهتار:

«دي بت مايصة يابا طلبة. والنوع ده حيخش النار».

«أخش معاها!».

«تخش فين؟».

«النار. هوَّ انا يعني ضامن أخش الجنة أوي».

«كلام إيه ده بس يابا طلبة!».

«هوّ ده الكلام. تبيعوا النص فدان بتاعي وتجوزوني. ولو خبيتو عنّي مكان بيتها حروح أسأل عليها في التليفزيون».

تفشل محاولات أمي البدائية، فتستخدم آخر الأسلحة، الصوت العالي:

«اسمع يابا طلبة أنا ساكتالك عشان انتَ راجل كبير وفي مقام أبويا، بس والنبي لو ما رجعت عن اللي في دماغك لاكون قايلة لابن أخوك، وهوَّ يتصرف بقى معاك».

«طب ما انتي كده كده حتقوليله».

«معناه إيه الكلام ده؟».

«يعني وفري صوتك العالي لتربية العيال. وأنا قلت حتجوز البت دي يعني حتجوزها».

«طب وحياة رحمة أبويا...».

وقبل أن تكمل أمي، وفي غفلة منّا ينحني ويسحب عصاه من تحت سريره، يطيح فينا جميعًا، تنسحب سعاد في صمت، قبل أن تُكمل تجهيز المسقَّعة. كانت أقربنا للباب، أمّا العصا، فقد طالت أمي بضربتين عشوائيتين قبل أن تمسكها من يده بعد أن طوحها، تتوقّف رحلتها الطائشة عند ركبتي، ضربتِ العصا القصرية التي تحمل الورد البلاستيكي المترب فوق الثلاجة، بعد أن وجد جدي طلبة نفسه محاصرًا وشبه مشلول، تحولت القوة إلى ضعف وتبدل الهوج إلى رقة والزهو إلى انكسار وبكاء، بكى جدي طلبة، أجهش واهتز جسده، هي المرة الثانية التي أراه فيها يبكي، كانت المرة الأولى عندما هُدِم بيتنا بالبلدوزرات.

خلع جدي الأبهة، رجع صاغرًا لسيرته الأولى، ارتدى جلبابه «البلما» الرصاصي، نظر إلينا نظرة يصعب تفسيرها، انزلق تحت سريري بكامل إرادته، صمت صوته واستكان صخبه، لم يبق من أثره بالخارج إلّا عصا بني بعوجاية وبلغة لامعة وجلباب كشمير ولاثة ماركة السبع.

49

فـي اليوم التالي أيقظتني أمّي وهي شـاردة، مـدت يدها بفلوس فكّة، وقالت بصوت خفيض بعيدًا عن أذن أبي القريبة:

«خد اشتري بدول كافولة لكبار السن».

لم أسـألها لمن.. فلم يكن أحد في الكشـك كُلّه يحتـاج إلى ما تطلبه سوى شخص واحد.

أثنـاء خروجـي، رأيـتُ «أنـس» يجلـس على كرسـيه المتحـرّك أمام البـاب، ينظـر فـي الأرض وأمامه قطته، نائمة وسـاكنة، لا تتحـرّك، أنس يتبسـم ولا يرفـع عينيه مـن عليها. خرجـتْ أمّي وهي تحـاول دسّ كيس النقود في عبّها:

«ماتت النهارده الصبح. خُدها ادفنها معاك وانتَ رايح.. علشان طول ماهو شايفها كده هيفكّر فيها. البس كيس بلاستيك في إيدك، أحفر جنب سور الترب وحطها. غطّسها تحت أوي علشان الكلاب ماتطولهاش».

قالـت أمي، ثم دخلت إلى عمق الكشـك، وقبـل أن أبحث عن كيس بلاستيك ألبسه في يدي خرجتْ مرّة أخرى لتضيف تعليمات جديدة:

«خد «أنس» معاك. يمكن يقدر يعرف إن اللي مات عمره ما هيرجع تاني».

أخذته معي بعد أن عبأت قطته في كيس أسود، عند سور المقابر حفرتُ لها حفرة تكفي كلبا، وضعتها بالكيس الأسود، وأهلت فوقها التراب، كلما غاصت القطّة تحت أكداس الأتربة كان أنس يبتسم، وعندما وقفتُ لأدك الأرض فوق قطته، ازداد تبسّمه، هلّل بيديه الصغيرتين وأشار بكفّه إلى مكان الدفنة، ربما هُيئ له أني أحممها، هل يعرف أنس معنى الفناء؟

سحبت الكرسي المتحرّك الجالس فوقه أخي الكبير وانصرفنا.

عندما عدتُ، شممتُ رائحة كريهة تضرب أركان الكشك، كان منبعها منامة جدي طلبة، أثارت هذه الروائح تحفظات أبي، ألقى أوامره وانصرف، تحمّل المسؤوليّات الجسام يكون عادة من نصيب أمي، خفّفتْ من إحراج الموقف بكلمات مثل:

«وماله. زي بعضه. حصل خير. مالكوش انتم دعوة بس».

أجلس أنا وأبي خارج الكشك، تقوم أمي العفيّة بسحب المرتبة، يرقد جدّي طلبة عليها محدّقًا في الفراغ، يستمع إلى حوارنا كاملًا، تناديه أمي فلا يرد، تقطع استرساله بالنداء مرة أخرى:

«اصحى بقى يا با طلبة».

ينظر إليها جدي ولا ينطق، تغيّر لون بشرته كثيرًا عن الأمس. قام من رقدته بصعوبة بعد أن استند إلى حافة السرير، ظهره منحنٍ بشدة كقوس تيبّس رمحه للأبد، قعد على السرير، عيناه شاخصتان للأرض، لا ينظر إلى

شيء محدد، ربما أصيبت ذاكرته بعمى من كثرة الصور التي يحتفظ بها، كان من الصعب تخمين ما تحمله نظراته من إيحاءات. يحاول النهوض، يعافر جسده التالف، يخبو الوهج في عينيه الضيقتين، ينطفئ، أنظر له وأتأمل السنوات وهي تصنع خرائط وأخاديد فوق بشرته، تهدلات تكاد من ضعفها تسقط لو فركها.

تسحب أمّي المرتبة وتنفضها بالخارج، تمسحها بمسحوق الغسيل مرّتين، ترشّ عليها قطرات كولونيا حلاقة من زجاجة قديمة ملقاة فوق الثلاجة، تخلع ملاءتها التي كانت مفروشة وترميها في طريق الغسالة، تفرش غيرها جديدة، تضحك في وجه جدي، وتُذَكِّره بمواقف عايشها ويعرفها جيدًا. كان في دنيا بعيدة، لا يتحرك ولا يرمش، لا يهتم بما يدور من حوله، تكمل أمي وصْلتها من الترويح عنه بطرق شتّى. تُذكِّره بأشياء نسيها، ثم تضحك، وأضحك أنا الآخر، كنا كمن يضحك على نكتة «بايخة»، نقتضب الضحكة عندما ننتبه إلى صمته وتكشيرته.

ملامح جدّي ساكنة، تزداد انقباضًا، يتحوّل الترويح عنه إلى مأساة، أشفق على أمي، فهي المتورطة دائمًا فيما نفشل جميعًا فيه.

خلعتُ عنه ملابسه، وهو شارد ومستسلم، ألبسته غيرها نظيفة ومزهّرة وهي تغني:

«شاطر يا شاطر يا شطور..

حلبّسك جديد واركبك حنطور..

عسل يا عسل يا عسول..

اطلب عنيّه وزي ما تطلب تنول..».

ترفع يده وتنزلها كأنه دمية، تسحب مشطًا كبيرًا من فوق الثلاجة وتمشط ما تبقى من شعيراته، تسخّن ماء في كنكة صغيرة، تخلطه بماء بارد حتّى يصبح دافئا كدمعة العين، تمسح وجهه فلا يغمض لتفادي الماء، تُنشّفه بمنشفة كانت على كتفها، تبتسم وهي تُنغّم صوتها وتهز رأسها، كأنها تلاعب طفلًا:

«يا القصر دا ما اطلعه لو مش حبيبي فيه

يا الفرش دا ما افرشه نايم حبيبي فيه

يا الكحل دا ما اكحله سواد عيونه فيه

يا الفل دا ما أعلّقه بياض جبينه فيه

يا الورد دا ما اقطفه حَمار خدوده فيه

يا البحر دا ما اشربه سافر حبيبي فيه

يا القمح دا ما انفضه ومن طينه ما انقيه

إلا في غربال دهب وأغربل حبيبي فيه».

يُديم جدّي طلبة النظر إلى باب الكشك وهو مغلق، يمسك البلغة التي لمّعها بالأمس ويضرب فردتيها ببعضهما البعض، يضع قدميه فيها ويقف، ينتصب عوده، يقاوم الجاذبية الأرضية بصعوبة، يتجه ناحية

الباب، وتقف أمي خلفه لترى ماذا سيفعل، يفتح الترباس، يخرج بعد أن تفشل التوسلات والاستفسارات، تمسك أمي بذيل جلبابه القصير فيجذبه من يدها بعنف، أضع يدي على كتفه، في محاولة استرضاء، فيميل كتفه وتنزلق يدي..

يخرج جدي طلبة للشارع، تضرب الشمس عينيه، فيضع يده على ناصيته متفاديا أشعتها، يستقر فوق حجر رصيف، نسير أنا وأمي وراءه، نتابعه من الخلف، يجلس على حجر رصيف ويخرج من جيب جلبابه العلوي سيجارة، يضعها بين شفتيه، ويسند يده على ركبته متأملا المارة، يمد قدميه للأمام في تمطيعة بطيئة، يشير إلى شخص يعلق سيجاره في فمه، يخرجها من بين شفتيه ويعطيه إياها، يشعل جدي سيجارته، يقضي عليها في ثلاثة أنفاس، يرمي العُقب وينصرف، يمشي إلى حيث تأخذه قدماه، نتسحّب خلفه أنا وأمي، يرانا، ينحني، يلتقط من الأرض طوبًا وزلطًا ويقذفنا به، تلطع إحدى القذائف أمي فتجرح خدّها. نمسكه حتى يستقيم عوده، تغيم نظرته قليلًا، ثم يفيق، يُخلّص يده منّا، يكمل السير في اتجاه عكس الكشك، يجلس على حجر آخر، يحاول أن يستوعب ما فات عليه من أحداثٍ مرّت منذ سنوات طويلة.

تنتهي مطاردتنا لجدي، عندما يرتطم بعربة يد يجرها صاحبها وفوقها أشياء قديمة، يقع جدي طلبة على الأرض، ينفرط الطوب والزلط الذي كان يحتفظ به في حجره، ترتطم رأسه بالأرض فيسقط بلا حراك.

50

أسمع صوت سعاد، هذه المرّة كان حزينًا، لم يصدر من كشك الأستاذ عبد الشافي سعيد، ولكنه كان في قلب مسكن جارنا العجوز، أخرج خلف أمي وأتتبّع أثرها. يقف سكّان الإيواء كلّهم تقريبًا أمام باب الرجل، ملتصقين في طوابير غير منتظمة، تشقّ أمي طريقها، تحفر أخدودًا من الفراغ وأنا خلفها، تتلاحق أنفاسنا عندما نصل إلى الباب الصاج. في البداية، لا أرى شيئًا إلا القاعدة الصيني التي أعطتها أمي للرجل، أدقق النظر للقاعدة، أرى فوقها نسيجًا يشبه ما يصنعه عنكبوت في بيت مهجور، هُلام كأسلاك مسلّح رفيعة ومتقاطعة، من بعيد تبدو كدخان ثابت في مكانه، أو ظِل باهت على جدار، القاعدة الصيني في نهاية الكشك، والناس يقتربون منها، يتأملون شيئًا وهميًا فوقها، وأمي تتأمل معهم، وأنا أجاري محاولات الحملقة بأقصى طاقتي، الجميع يخبطون أكفّهم ويحوقلون في جلبة جماعية حزينة.

حتى هذه اللحظات وأنا لا أرى الرجل، فقط أرى أشباحًا لعفش شحيح، كنبة أنتريه وحيدة فوقها كوبرتة متّسخة، بجوارها منضدة قصيرة، عليها طبق طعام، حوافه مرسومة بعفن أخضر، وتحت المنضدة

وابور شـرائط وعلبة حلاوة طحينيَّة مفتوحة، وسـرير سِفري صغير، فوقه شـمعدان حديـد مبطط بلا شـموع. بجوار السـرير كرسـي فقد مسـنديه وجزءًا كبيرًا من حشيته.

بعـد قليل، يتحلَّـق جميع الموجوديـن داخل الكشـك، بالأدق حول القاعدة، أتأمّل أكثر، أرى ما تبقّى من جارنا العجوز، هيكل هش من عظام نخرة وبقايا أنسـجة كالفتل، يجلس بكامل جِرمه، لكن بلا أبعاد، الهيكل مُفرّغ. أتخيّل شكل الرجل وهو جالس، يوم أن كان له شحم ولحم، ظهره منحني، يداه مسـتندان على فخذيه، وقدماه كانتا بالكاد تلمسان الأرض، مكان قدميه شبشـب إحدى فردتيه مربوطة بسـلك، والأخرى ليست في مكانها، ومن حوله بيجامة سترتها واقعة، أمّا بنطلونها فمعظمه ساقط عن القاعـدة، نصفـه يلمس الأرض، يغطّـي أتربة رماديّة منثـورة كطين جاف مفتت.

يتدافـع الناس، ويدخـل تيّار هواء قوي، يتفتت الهيكل ويسـقط فوق بنطلـون البيجامـة. تصرخ سـعاد صرخـة مكتومة وهي تضـع كفيها على وجهها، يعتلي الوجوم ملامح أمي، وتفتح فمها دون أن تضع فوقه طرف طرحتها السوداء.

يقتـرب شـاب ملتحي يمسـك في يده قطعتـي قماش بفتـة.. بواحدة يكنس كل ما وقع على الأرض، وبالأخرى يفرد قماشة بيضاء ويضع فيها الكناسـة، يصرّهـا ويغلقها جيدًا، يخـرج بها في اتجـاه المقابر المواجهة للأكشاك.

بعـد أن شـاركتُ فـي صلاة الجنـازة علـى جارنا العجـوز عدت إلى الكشـك، فوجدت جدي طلبة مقرفصًـا على الأرض، يعد أصابع قدميه، وفي كل إصبع يقول كلمة لا أفهمها:

«الهيرميس.. الصغير. الصكرجة. الصوايد. الكبير. القادوس»

وتجذبني أمي من ذراعي:

«جدك راجع».

ولم أفهم:

«يعني إيه؟».

«الحاجـات اللـي بيقولهـا دي تبقى أجـزاء السـاقية. كان وهـوَّ قدَّك كده شـغَّال نجار سـواقي. واللي بيرجع يا حبيبي مبيفتكرش إلاّ أيام عِزُّه وبس».

51

لـم يعد جـدي طلبة يتذكـر حدثـًا كاملًا إلا يـوم التُقطت لـه الصورة مـع الرئيـس جمال عبـد الناصر، تختلط فـي دماغه الأحـداث والأزمنة، تنفلت الروابط بين الأشـياء، تماهت عنده المسـافات بيـن ما حدث وما لم يحدث، أقول له شيئًا يُضحِك الحجر ولا تتغير تعبيراته، وأقف صامتًا فأراه يضحك لسبب أجْهَلُه، بالأمس سألني:

«انتَ مين؟».

وقبل أن أرد أجاب هو:

«آه. افتكرت. انتَ ابن الكلب اللي قارفني».

ثم يصمت، ويتأمل بروازًا مكسورًا على الحيطة، وأسأله:

«عاوز حاجة يا جدي؟».

يستغرق مدَّة طويلة قبل أن يرد:

«هوَّ أنا إيه اللي جابني عندكم أصلا؟».

تتوصَّل أمي إلى طريقة للتفاهم معه، تُعلِّق في قبَّته فوطة، تُجلسه على الكنبة، تحضر طبق فتَّة وتجلس على كرسـي أمامه، ما يصل إلى فمه أقل

مما يقع خارجه، يبتسم، يرد يدها، يخلع الفوطة عن قبّته. تتحوّل ابتسامة جـدي طلبة المـزرورة إلى ضحكة مجلجلة بلا سـبب، يطلـع لها صدى صوت، ثم تستقر تكشيرة مخيفة، كأن ملامحه تتعرَّض لسطح ساخن.

يمتنـع جدي عـن الطعام نهائيًا، ويفقـد من وزنه كثيـرًا، ثم يمتنع عن الكلام، وتقول أمّي:

«جدك اتسجن».

لم أفهم، انتظرت قليلًا، فأكملتْ:

«مش حاسس يا حبيبي باللي حواليه. ربنا يتولى به».

بعد مدة لا أتذكَّرها سمعت صوته:

«أحب جمع الفتن وأشهد لم رأيت، وكنت جُنب صلّيت، قطعت رقبة مؤذن، ومن رحمة الله وليت، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء».

أستمع لألغـازه، أفكـر فيها وأبحث عن حـل، يجيبني قبـل أن أُرهِقَ نفسي في البحث عن إجابة، يرفع الملاءة ويمط رقبته ويبدأ الشرح:

أحب جمع الفتن.. إنما أموالكم وأولادكم فتنة.

وأشهد لم رأيت.. أشهد بالله ربي وأنا لم أره.

وكنت جُنب صليت.. على النبي.

وقطعت رقبة مؤذن.. ذبحت ديكًا وطبخته.

ومن رحمة الله وليت.. من المطر هربت وجريت.

ولي في الأرض ما ليس لله في السماء... الزوجة والولد.

أرفع ملاءة السـرير لأطمئن على جـدي النائم، لا أجد إلّا نِعالًا مُتربة وشُـنط بلاسـتيك فارغة، من أيـن جاءتني الرغبـة إذًا لصناعـة نهاية على مزاجي لجدي طلبة الذي مات منذ سبع سنوات، وأصبح الآن ترابًا؟.

52

تركَنا جدي طلبة ولم يعد بإمكاني استعادته إلا عن طريق أشيائه التي تحتفظ أمي بها، عباءته البلما الرصاصيَّة، أراها خاوية تحتفظ ببعض من روحه، علبة الدخان التي تركها فارغة من الدخان، ولكنها تعبق برائحة يده، وبالوجه الأجنبي المنحوت فوقها ولا أعرف صاحبه، بلغته البُنِّية التي غيَّر الغبار لونها، اللاثة ماركة السبع مُعلَّقة على مسمار في شبَّاك الكشك، العصاية أم عوجاية هي الأخرى، يتوكأ عليها أبي عند اللزوم، ثم يعلقها في جنش نازل من سقف الكشك، وفتحي، يلبس أحيانًا جلباب جدي الكشمير في ليالي الشتاء، يغرق فيه كفأر يرتدي ملابس قِط.

احتفظتُ بصورة وحيدة لجدي طلبة، انتزعتها من جلدة بطاقته، صورتها في كارت منفصل، صورة في حجم الكف، يرفع رأسه عاليًا، يشرئب عنقه كأنَّه يحاول رؤية شيء ما يقع وراء المصوِّر. كنت كلما تأملتُ ملامحه أستقرُّ عند عينيه، أقول لنفسي، عندما يصبح لي أولاد سأقول لهم أنني رأيت العيون التي رأت الملك فاروق الأول.

سكنت صورة جدي في جيب محفظتي، نامت بما لها أو عليها، وبقينا نحن ندور مع الزمن لفَّات حلزونية لا أعرف لها أولًا من آخر،

مـا كان أبـي يفعلـه في بيتنا على شـاطيء الغاب، ظل يفعلـه كما هو دون أي تغييـر، يلصق أحاديـث نبوية مصورة ويلزقها ببلاسـتر داخل وخارج الكشـك، زاد عليه فقط أنـه أصبح يأمرنا بالفعل أكثر ممـا يفعل هو بيده، نُصـوِّر نحن الورق ونشـتري اللاصق ونثبّتها علـى الأركان، وهو يجلس على كرسي يتابع ميل الورقة، يزنها بعينه ويقول:

«أومال عاوزين تدخلوا الجنَّة ببلاش؟».

ومـن أجـل الجنَّة كُنَّا بأمر منه، أنا وفتحـي، نلملم ورق الجرائد الذي يحمل شبهة كلمات دينيَّة.

«الله. محمد. صل على النبي. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. انتخبوا محمد أحمد عبدالله»

نحرق الأوراق المقدَّسة أمام الكشك، وتجلس أمي أمام كشك جارنا العجـوز الذي لم يظهر له أصحاب، كانت تسـتخدمه لتخزين الكراكيب ونشر الغسـيل، وبالتعوّد أصبح من حقنا كشكان، واحد بمد اليد والآخر بوضع اليد.

كان أبـي يبحـث عن لحنـه في فرقة موسـيقية لا تشـعر بـه ولا تؤمن بموهبته.

يبحث فتحي عن عمل بعد نهاية الدراسة، وأبحث أنا عن ابتسامة بعد أن ركَّبت سنَّة صناعيَّة، لا تفرق كثيرًا عن أسناني الطبيعيَّة.

53

كنـتُ دائم الشـعور بأن هنـاك عين كاميـرا غير مرئيّـة تتلصص عليَّ، تراقبني وتتابع تصرفاتي من بعيد، ثم تنتقل بانسيابيّة وتتسلّط على غيري، تهملني قبل أن يهملني العالم ويطويني النسيان. لو أن أيامي نُثِرتْ كأوراق الكوتشينة، سأفشـل في محاولة إعادة ترتيبها بشكل صحيح؛ فكل الأيام تصلح لتحل محل أيام أخرى. كلّها تشبه بعضها إلى حد كبير.

حاولـتُ تذكُّـر حياتـي حسـب ترتيبهـا الزمنـي وفشـلت، جميـع الشخصيَّات تركتِ الحياة الفعليّة وعششتْ في متاهات ذاكرتي، تُخلِص الذاكـرة فقـط لما تعـرف، ترفـض اختراقـات التغيير المسـتمرة، تحتفظ بكل الودائع، تُفرّق بين شـكل الوردة ولون الدماء، بين التكبر والكبرياء، تُجدْوِل كل شـيء فـي خانات، في الغالـب يصاحـب تغييرها إرهاق دائم وشـعور بالعجـز، كلمـا تبدَّلتْ الخانات أشـعر بمحنـة، بأنّـي كَبِرتُ، أو يجب عليّ التوقف للتأمل.

ثماني سـنوات أتممناها ونحن نُقيم في الكشـك.. ذهب أبي ليتسـلَّم استمارة الشقَّة، لم تعد مسألة الفوز بشقة تشغلني.

خمسة عشر عامًا قضاها أبي في القاهرة، لم يستطع التأقلم مع حياة المدينة، ظل مخلصًا للهجته الريفية وذكريات الأرض الخضراء، يأمل أن يجدد عقده عامًا إضافيًا يقضيه عاملًا في سويتش قصر العيني، يجلس أمام حائط أزرار السويتش، ينزع كابل المدير ليوصله برقم الطبيب النوباتجي، أو ينزع كابل غرفة الممرضات؛ ليضعهن في حوار مباشر مع الممارس العام، يستمتع بتعسيلته اليومية، وهو جالس بجوار الزجاج نائمًا، يتطوح في أتوبيس 52 بشرطتين، رحلة متوسطها ساعة ونصف ذهابًا، ومثلها إيابًا، يحمل لمدّة عام آخر شنطة خبز ساخن وبيضًا ومربى تبقت من وجبات مرضى القصر البائسين.

لم يستطع أبي طوال كل هذه السنوات التخلي عن عاداته، لم يستغن عن الجلباب البلدي والصديري «أبو» أزرار كثيرة وجيوب واسعة، لم يتخلَّ نهائيًا عن البلغة العمولة واللباس البفتة الذي يصل إلى ركبتيه، يشتري أقمشة جلاليبه من لون الجلباب القديم نفسه؛ حتى يتجنّب الحسد. ينقضي عمر أبي دون أن يُدرك له معنى واضحًا، كشخص وقف في طابور طويل، ودون سبب مقنع قرر ترك مكانه لغيره، ثم انصرف يبحث عن الوقوف في طابور آخر.

أفيق من تأملاتي التي تسرّبت كخيط دخان.

لمحتُه من بعيد يحمل في يده ورقة انتظرناها طويلًا. رفع دوسيه به أوراق في وجه أمي:

«عقد الشقّة»

أجرَّ أبي سيارة نصف نقل، كوَّمنا عفشنا للمرَّة الثالثة، سننقل العفش على مرَّتين. قال إننا سنستقر أخيرًا في مدينة ناشئة، نبتت في قلب الصحراء، لم أتذكَّر اسمها، ولا أبي أيضًا كان يتذكَّر.

تمت

حي الزهور

2014

عن الكاتب

عمرو العادلي

كاتب مصري

صدر له:

- خبز أسود (مجموعة قصصية) 2008.
- جوابات للسما (مجموعة قصصية) 2009.
- فيل يتدرب على الإنسانية (يوميات ساخرة) 2010.
- إغواء يوسف (رواية) – طبعة ثانية 2014.
- حكاية يوسف إدريس (مجموعة قصصية) سلسلة كتابات جديدة 2012.
- كتالوج شندلر (رواية) 2013.
- الزيارة «ما حدث لعمر سعيد إبراهيم» (رواية) 2014.
- صباح الخير يا أنا (ديوان بالعاميّة المصرية) 2014.

للتواصل:

Amr_ali_adly@yahoo.com

شكر

لولا هؤلاء لما خرج العمل بهذا الشكل.. عماد العادلي. مكاوي سعيد. أشرف العشماوي. إبراهيم عبد الرحمن. ندى عمرو.

لكم جميعًا شكري ومودتي

«كان بيتنا فقيرًا وغير أنيق بالمرة ولكنه نظيف. أما عائلتنا، فمتحدّرة من سلالة شريفة، ولكن فقرها (دكر) ومعدمة، كأنّنا كنّا ننتمي لأسلاف أكثر رُقيًّا في زمن مطمور. غذّت أمي في دماغي فكرة أظن أن بقاياها لا تزال مترسّبة في قعر مخّي حتى الآن: الشرفاء دائمًا فقراء. أما الأغنياء فكلهم أولاد كلاب».

لكل منا رحلته فوق الأرض، حسبما رسمت له الأقدار خطاها.. وكل منا يحاول أن يجعل هذه الخطى ذات قدر أكبر من السعادة وقدر أقل من الشقاء.. نحن أمام رحلة مقدسة لعائلة غير مقدسة. تكتسب الرحلة قدسيتها من إيمان العائلة بالقدر والمقسوم وإدراكها لرسالة عمران الأرض.. بذلك المزيج الرائع من البسمة والشقاء!

عمرو العادلي كاتب مصري وباحث في علم اجتماع الأدب.. صدر له ثلاث مجموعات قصصية: خبز أسود 2008، وجوابات للسما 2009، وحكاية يوسف إدريس 2012.. وثلاث روايات: إغواء يوسف 2011، وكتالوج شندلر 2013، والزيارة 2014.

